الحُجَجُ البَاهِرَة

فِي التَوَسُّلِ بِالعِتْرَةِ الطَّاهِرَة

تأليف

الشيخ محراب دانش جعفري

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
مركز الدراسات والمراجعة العلمية

اسم الكتاب: الحجج الباهرة في التوسُّل بالعترة الطاهرة.
تأليف: الشيخ محراب دانش جعفري.
ضبط ومراجعة: مركز الدراسات والمراجعة العلمية.
تدقيق لغوي: الشيخ علي الطرابلسي.
تصميم وإخراج: حيدر مهدي صالح.
الطبعة: الأولى.
عدد النسخ: ١٠٠٠.

شهر رمضان المبارك ١٤٤٧هـ/ آذار ٢٠٢٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

مِنْ بابِ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الـمُنْعِمَ مِنَ الـمَخْلُوقِينَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

أقفُ بِبابِ مَن لَوَى التاريخُ عِنانَهُ لِجُودِه، وعِندَ سُدّةِ مَن صارَ لِلوفاءِ مِحراباً، سيدي ومولاي أبي الفضلِ العباس عليه السلام، أرفعُ إليكَ يا كافلَ العقيلةِ زفراتِ الشوقِ مُغَلَّفَةً بِالتضـرعِ والإخبات، شاكراً للهِ أنْ جعلَ قَلَمي خادماً في مَدارِ عتبتِكَ الطاهرة، ومُستظِلاً بِفيءِ قُبَّتِكَ التي تُناطِحُ السحابَ طُهراً ونوراً.

وإنَّني إذْ أحمَدُ اللهَ مِلءَ قلبي، أستذكرُ بامتنانٍ تِلكَ السنينَ التي قَضيتُها في (وِزارَةِ الإرشادِ والحجِّ والأوقافِ في أفغانستان)، حيثُ مَنَّ اللهُ عليَّ بِشـرفِ خِدْمَةِ حُجَّاجِ بَيتِ الله الـمُعظَّم، وتَحمُّلِ أمانةِ (مَسؤولِيَّةِ مَناسِكِ حُجّاجِ أهلِ التشيُّع)، ورِعايَةِ قوافِلِ

الزائرينَ إلى عَتَباتِ الجَلال. واليومَ، وبِعِنايَةٍ رَبّانِيَّةٍ ولُطفٍ مِنَ الأئمةِ المَعصومين عليهم السلام، يَتَجَدَّدُ لي هَذا العَهدُ القُدسيُّ بِفَضلِ رِعايَةِ العتبة العباسية المقدسة، لِأكُونَ لَبِنَةً في صَرحِ الخِدْمَةِ العِلمِيَّةِ عِندَ بابِ الحَوائِج.

لِذا، فَإنَّهُ لَمِن أوجبِ فروضِ الامتنان، أنْ أتقدَّمَ بِآياتِ التبجيلِ والعرفان إلى مَقامِ العَلَّامةِ الحُجّةِ السيد «أحمد الصافي» (دامَ عِزُّه)، المتولي الشرعي للعتبة العباسية المقدسة، الذي غَمَرَني بِفَضلِهِ وجَعلَني مِمَّن يَتشرفونَ بِالانتماءِ إلى مَنظومةِ العطاءِ في (قِسمِ الشُّؤونِ الفكريةِ والثقافية)، لقد كانت رعايةُ سماحتِهِ لي، واحتضانُهُ لِمسيرتي العِلميةِ، هِيَ العُروةُ التي وثَّقَت صِلتي بِخِدمةِ آلِ محمدٍ في عالَمِ الغُربةِ والأسفار، فكانَ لِحكمَتِهِ الأثرُ في أنْ يَستحيلَ جُهدي العلمي إلى أثرٍ مَلموسٍ يَخدمُ مدرسةَ الثقلين.

كما ويَستوجِبُ الوفاءُ شُكرَ السعيِ المشكورِ لِفضيلةِ الشيخ (حسن الجوادي)، الذي كانَ لي نِعْمَ العَونِ والسَّنَد، حيثُ مَهَّدَ لي سُبُلَ البحثِ والتنقيبِ في هذا المَعلمِ الفكريِّ الرَّصين، مُتحمِّلاً مَعي عَناءَ الغُربةِ لِيَخرجَ هذا السِّفرُ إلى النور.

الإهداء

يا آلَ بيتِ النبوة.. يا مَن «**بِكُم فَتَحَ اللهُ وبِكُم يَختِم**».. جئتُكُم بِبِضاعتي الـمُزجاة، مُتضرعاً بِقلبٍ كسيرٍ أنْ تَنظُروا إلى هذا العملِ بِعينِ القَبول. وما هذا الكتابُ إلَّا نَبضةٌ مِن حُبّ، وزفرةٌ مِن استغاثة، أرَدتُ بها جَبرَ تَقصيري في أداءِ شُكرِ نِعَمِكُم التي لا تُحصى. لقد خَطَطتُ كلماتِهِ بِمِدادِ التوسلِ بِـ «ذبيحِ الله» ومَولاي «ساقي العطاشى»، راجياً أنْ يَكونَ هذا الجُهدُ شَفيعاً لي يَومَ الوُرود.

فإلى سَماحةِ العلامةِ السيد الصافي، وإلى جَميعِ مَن مَنحني شرفَ الخِدمةِ في هذهِ البُقعةِ المقدسة، أدعو اللهَ أنْ يَحفظَكُم حُصوناً لِلدينِ ومَناراتٍ لِلهُدى، وأنْ يَتَقَبَّلَ مِنّا هذا القليلَ بِحقِّ محمدٍ وآلِهِ الطاهرين.

الـمُؤَلِّف

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي جَعلَ التوسُّلَ إليهِ وسيلةً لنيلِ مَراضيه، وطريقاً يُفضي بالعبدِ إلى حِمى قُدسهِ ونواحي تَقواه. والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، سَيّدِ الخلائقِ وأشرفِ المُرسلين، سَيِّدنا ونبيِّنا أبي القاسمِ محمدٍ صلى الله عليه وآله، الذي جَعلهُ اللهُ عُروةً وثقى، والوسيلةَ العُظمى، وعلى آلهِ الطيّبين الطاهرين، الذين هُم سُفُنُ النجاةِ وأبوابُ الرحمةِ الإلهيّة.

أمَّا بعدُ، فإنَّ حقيقةَ التوحيدِ لا تَكتملُ إلَّا بالخضوعِ لِما أمرَ اللهُ بهِ من ابتغاء الوسيله، حيثُ قالَ في مَحكمِ كتابهِ: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾. ومِن أسمى تجليَّاتِ هذا الابتغاء هو التوسّلُ بأولياءِ اللهِ المُقرَّبين، الذين لا يُردُّ دُعاؤهم ولا يَخيبُ مَن استجارَ بِحماهم.

ولمَّا كانت شُبهاتُ المبطِلين وتشكيكاتُ الجاهلين قد أحاطت بهذا المبدأِ الأصيل، حاولتُ في هذا الكتابِ الماثلِ بين يديكَ -أيها القارئُ الكريم- أن أستعرضَ مَسألةَ «التوسُّل» استعراضاً تحليلياً مُستنداً إلى مُحكماتِ الكتابِ وصحيحِ السُنّةِ وسيرةِ السلفِ الصالحِ من الصحابةِ والتابعين.

وقد اشتملَ هذا المَجهودُ المتواضعُ على:

أ- تبيينِ المفهومِ اللغويِّ والاصطلاحيِّ للتوسل.

ب- إقامةِ الأدلةِ العقليةِ والنقليَّةِ على جوازِهِ واستحبابه.

ج- دفعِ الشُبهاتِ والردِّ على الإشكالاتِ التي أثارها المانعون.

والهدفُ من هذا التدوينِ ليس إلَّا تبيانَ الحقيقةِ الناصعةِ، وتقريبَ القلوبِ إلى مَنابعِ الفيضِ الإلهي. وأسألُ اللهَ العليَّ القديرَ أن يَجعلَ هذا العملَ خالصاً لِوجهِهِ الكريم، وذُخراً لي يَومَ لا يَنفعُ مالٌ ولا بَنون إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليم.

وآخِرُ دَعوانا أنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمين.

القسم الأول:
العموميات والمفاهيم

الفصل الأول: المفاهيم العامة

الملخص:

يُستفاد بجلاء من خلال الآيات والروايات وآراء الحكماء وسيرة المسلمين، فضلاً عن المباني العقلية، أن التوسُّل بنبي الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام أمرٌ جائز، ولا فرق في ذلك بين حياتهم ومماتهم. وتؤكِّد سيرة الصحابة أنهم كانوا يتوسلون برسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، كما كانوا يلوذون بقبره الشريف بعد رحيله. أما الآيات التي استند إليها معارضو التوسُّل، فجميعها نزلت في شأن المشركين وعبادتهم للأصنام، ولا صلة لها بمسألة التوسُّل مطلقاً. إنَّ التوسُّل بالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام لا يعني أبداً

اعتقاد استقلالهم بالربوبية أو تدبير الأمور وقضاء حوائج الناس دون الله، بل التوسُّل هو اتخاذ ذوي المقامات الرفيعة وسائط ووسائل إلى الله تعالى لما لهم من منزلة وقرب عنده.

المقدمة:

في هندسة عالم الخلقة، لا تحدث أي ظاهرة خارج نظام السببية؛ فكما أنَّ الشمس واسطة لإشراق النور على الأرض، فإن تدفق الهداية والرحمة الإلهية في عالم المعنى لا يمر عبر مسارات عشوائية. إنَّ مسألة التوسُّل بأولياء الله وأهل البيت عليهم السلام قبل أن تكون سلوكاً طقسياً أو عاطفياً لها جذور في ضرورة وجودية ومعرفية.

وخلافاً للرؤية الظاهرية التي توهمت أنَّ التوسُّل يمثل انقطاعاً في التوحيد، يثبت التحليل العقلاني أنَّ التوسُّل هو عين التوحيد وجريٌ على وفق السنن الإلهية؛ إذ يحكم العقل بضرورة وجود رابط بين «مبدأ الكمال» و«الموجود الناقص» لتتحقق إمكانية الحركة والصعود. وهذه الوسائط التي عبرت عنها النصوص الدينية بـ (الوسيلة إلى الله)، هي موجودات ترسم

الحدود بين الخالق والمخلوق بأبهى صورها نتيجة طهارتها الذاتية وارتباطها الكامل بعالم القدس.

يسعى هذا البحث، بمنهج تحليلي وفلسفي، إلى تبيين حقيقتين:

أولاً: كيف يدرك العقل ضرورة وجود الواسطة بين الواحد والكثير؟

ثانياً: لماذا يُعدُّ أهل البيت عليهم السلام المصداق الأسمى لهذه الوسائط في نظام الخلقة؟

إنَّنا في هذا البحث، نتجاوز الظواهر لنعيد قراءة هذا الرابط المقدس قراءة عقلانية، لنثبت أنَّ التوسُّل ليس هروباً من الله، بل هو أدق السبل للوصول إليه. ومن هذا المنطلق، اعتبر علماء الإسلام هذه الوسائط خيوط الفيض وحبال الله المتينة، واتخذوا التمسك بهم سبيلاً لنيل الفوز والمقصود. واعتبروا التوسُّل اتخاذ وسيلة للتقرُّب إلى الله تعالى، حيث يُعد هذا المعتقد من الامور المحورية للثقافة الإسلامية والشيعية. وخلافاً لبعض التصورات السطحية التي تساوي بين التوسُّل والشرك، يعتقد الشيعة أن هذا المفهوم متجذر في «نظام الأسباب والمسببات» الذي أقره الله

حاكماً على الكون.

إنَّ مسألة التوسُّل بأولياء الله والمقربين لديه لحل المشكلات المادية والمعنوية، واتخاذهم وسائط عند الله، تُعد من أهم المسائل الخلافية وأكثرها جدلاً بين الوهابية وسائر المسلمين. يصرح الوهابيون بأنَّ التوسُّل بالأعمال الصالحة لا إشكال فيه، لكن التوسُّل بأولياء الله شركٌ وغير جائز. وفي هذا البحث، سنقوم بالرد على الفكر السلفي عبر طرح تساؤلات رئيسة وفرعية.

السؤال الرئيس:

هل يتوافق التوسُّل بالذوات المقدسة لأهل البيت عليهم السلام مع الموازين العقلية والبراهين النقلية من «الكتاب والسنة»؟

الأسئلة الفرعية:

أ. **في مجال المفاهيم**: ما هو المعنى الدقيق لـ «التوسل»، وأين تقع الحدود الفاصلة بينه وبين «الشرك»؟

ب. **في المجال النقلي (القرآن والسنة)**: ما هي أهم الآيات والروايات الدالة على مشروعية التوسل؟

ج. **في المجال العقلي**: كيف يفسر العقل اتخاذ «الإنسان الكامل»

واسطة للتقرب إلى الله؟ وهل يتعارض التوسُّل مع أصل «الارتباط المباشر بين العبد وخالقه»؟

د. **في المجال العلمي والغيبي**: هل تبرر «الحياة البرزخية» للمعصومين عليهم السلام إمكانية الارتباط والتوسُّل بهم؟

هـ. **الشبهات**: ما هو الرد على شبهات منكري التوسُّل، كشبهة «دعاء غير الله»؟

ولتوضيح هذه الأسئلة، نرى من الضروري البدء ببيان المعنى اللغوي والاصطلاحي للتوسُّل، ثم نتطرق للمسائل المفتاحية وفق ما تقتضيه المقالة، لنقوم بصياغة المباني الفلسفية والكلامية للتوسل بأهل البيت عليهم السلام بمنهج تحليلي ومنطقي يوضح الأبعاد المختلفة لهذه الأمثولة الإسلامية.

الفصل الثاني: الدلالات والماهية

دلالة التوسُّل (المعنى اللغوي والاصطلاحي):

التوسُّل لغةً: التوسُّل في اللغة هو التقرب، أو هو ما يُتوسل به إلى الغير ويُتقرب به إليه[1].

كذلك يعني التقرُّب إلى الغير عن طريق أداة أو عمل أو شخص آخر، ويُستخدم فعل «وسَّلَ» بالمعنى نفسه. وجاء في معجم (المنجد): «وسَّل وتوسَّل إلى الله بعملٍ أو وسيلة: عَمِلَ عملاً تقرَّبَ به إلى الله تعالى[2].

الوسيلة: هي ما يُتوصل به إلى الشيء ويُتقرب به إليه: «الوسيلة: ما يُتقرَّبُ به إلى الغير». كما ورد التوسُّل بمعنى التضرع، الاستجداء (الاستعطاء)، الالتماس، الاسترحام،

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٧٢٤.

(٢) د. روحي بعلبكي: قاموس العربي والانكليزي، بيروت، طبعة جديدة ١٩٩٠.

الاستدعاء، والتضرع[1].

المعنى الاصطلاحي للتوسل:

أمَّا في الاصطلاح، فهو أن يتخذ الإنسان «موجوداً ذا قيمة رفيعة وسيلةً بينه وبين الله للوصول إلى الأهداف ونيل مقام القرب الإلهي». وهو التمسك بأولياء الله في محضر الربوبية من أجل قضاء الحاجات. ويُعد التوسُّل من المعتقدات المسلّمة لدى المسلمين، وله رواج واسع بين السنة والشيعة على حد سواء؛ إذ هو مصداق لـ «الاعتصام بحبل الله المتين»، كما ورد في الآية الشريفة (١٠٣) من سورة آل عمران: ﴿**وَاعتَصِموا بِحَبلِ اللهِ جَميعًا**...﴾[2].

ويمكن تعريف التوسُّل بمعناه المصطلح في الثقافة الشيعية على النحو التالي: «التوسل: هو الطلب الحقيقي من حقيقة وجود إنسان مصطفى وكامل، للوساطة في أمر خيرٍ يتعلق بالدنيا أو الآخرة».

(١) الفيض الكاشاني: تفسير الصافي: مج١، ص٣٦٥.

(٢) سيد رضا حسيني النسب: جواب الشيعة، منشورات مشعر، ص١٤٣.

ويستفاد من هذا التعريف عدَّة نقاط جوهرية:

أ. من البديهي أنَّ التوسُّل ليس مجرد «لقلقة لسان»، بل هو «طلب حقيقي» نابع من القلب.

ب. من الواضح أننا في التوسُّل لا نطلب شيئاً من القبر أو الجسد المادي والنظام الفيزيائي للنبي أو الإمام عليهم السلام، بل نستمد العون من «حقيقة وجودهم».

ج. يجب أن يكون «المتوسَّل به» يتمتع بكمال ومرتبة وجودية أعلى من «المتوسِّل»؛ إذ لا تستقيم الوساطة منطقياً إلَّا إذا كان الواسطة فوق المتوسِّل ودون المتوسَّل إليه (الله سبحانه).

د. يجب أن يكون التوسُّل في «أمرِ خيرٍ»، أيْ: في أمرٍ لا يتنافى مع النظام الإلهي الأحسن.

هـ. يمكن أن يكون موضوع التوسُّل طلباً لخيرٍ دنيوي أو أخروي.

و. وعاء التوسُّل هو «الدنيا»، بخلاف الشفاعة بمعناها المصطلح التي يكون وعاؤها «الآخرة».

وقد أدخل البعضُ «الشفاعة» بمعناها العام واللغوي في تعريف التوسُّل، قائلين: «الاستغاثةُ بالنبي صلى الله عليه وآله وبإخوانه النبيين

والمرسلين وبالأولياء والصالحين، هي عبارةٌ عن سؤال الشفاعة منهم لقضاء الحوائج ودفع النوائب وتفريج الكروب»[1].

المعنى اللغوي للشرك:

الشرك في اللغة يعني المشاركة والاشتباه والتقسيم؛ أي أن يكون الشيء مشاعاً بين اثنين أو أكثر، ويخرج عن حالة الاختصاص والوحدانية. كتب ابن فارس في معجمه الشهير: «الشين والراء والكاف أصلان، أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد..»[2]. وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: «الشركة والمشاركة خلط المِلْكين»[3].

المعنى الاصطلاحي للشرك:

في الاصطلاح الكلامي والديني، الشرك هو القول بوجود شريك لله تعالى في مقام الذات، أو الصفات، أو الخلق، أو العبادة. وبعبارة أخرى، الشرك هو مقابل «التوحيد»، ويمكن

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٧٢٤.

(٢) انظر: د. روحي البعلبكي: قاموس عربي - إنكليزي، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٩٠. أيضاً: الحسيني النسب: الشيعة تجيب، نشر مشعر، ط٢، ص١٤٣.

(٣) الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، ج١، ص٣٦٥.

تعريفه في الأبعاد التالية:

١. **الشرك في الذات**: الاعتقاد بأنَّ الله أكثر من واحد (تعدد القدماء).

٢. **الشرك في الخالقية**: الاعتقاد بأنَّ موجوداً آخر له دور مستقل في خلق العالم.

٣. **الشرك في العبادة**: الخُضوعُ وَالعِبادَةُ لغير الله (كعبادة الأصناف).

يقول العلَّامة الطباطبائي في تعريفه الاصطلاحي للشرك ذيل الآية (١١٦) من سورة النساء: «حقيقة الشرك هي أن نضع شيئاً غير الله في موضع هو مختص بالله، سواء في مقام الذات أو في مقام الصفات والأفعال»[١].

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص١١٨.

الفصل الثالث: ماهية التوسُّل

ما هي ماهية التوسل؟ التوسُّل في الحقيقة هو إظهار التواضع والذلّ بين يدي الله تعالى؛ إذ لسان حال المتوسِّل يقول: «إلهي، ليس لي وجهٌ عندك بسبب ذنوبي، فبِحرمة هذا الشخص العزيز الذي له مقامٌ رفيعٌ عندك، انظر إليَّ». إنَّ التوسُّل بالنبي صلى الله عليه وآله والأولياء الإلهيين والمعصومين عليهم السلام وعظماء الدين لقضاء الحاجات المشروعة، هو من المعتقدات المسلَّمة والمشهورة لدى مدرسة التشيع.

ومن جانبٍ آخر، حاول المعاندون والمخالفون للثقافة الشيعية عبر التاريخ إظهار مسألة التوسُّل كبدعة، واعتبروا الاعتقاد بها بمثابة الشرك بالله، ومن هذا الطريق اتهموا الشيعة بنسبٍ واهية. وفي عصرنا الحاضر، قامت فئة بالتمسك بأفكار «ابن تيمية» ولا سيما «الوهابية» بإثارة هذه التهم والافتراءات أكثر من غيرهم.

النتيجة: ماهية التوسُّل هي الإقرار بفقر العبد وغنى الخالق من خلال الوسائط التي جعل الله لها اعتباراً. فالتوسُّل ليس شركاً ولا عبادةً لغير الله، بل هو استشفاعٌ بـ «وجاهة المحبوب» لنيل «رحمة المعبود». في الواقع، التوسُّل هو جسر التواصل بين حاجة الإنسان المحدودة وقدرة الله غير المحدودة، لكي توضع المادة (كالتربة) والمعنى (كالدعاء) في خدمة تكامل وشفاء الروح والجسد.

هدف التوسُّل وَغايته (لماذا نتوسَّل؟):

كما جاء في اللغة، فإنَّ التوسُّل يعني ابتغاء الوسيلة للتقرب إلى المقصود. وفي الفضاء العقائدي، ليس الغرض من التوسُّل – نعوذ بالله – اعتبار الخالق عاجزاً أو غير مطلعٍ على الأمور، بل تكمن أهدافٌ أعمق خلف هذا الفعل. نحن لا نعتبر الوسائط آلهةً (حاشا لله)، بل نعتقد أنَّ الوسائط كل ما لديهم هو من الله، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً استقلالاً. فالتوسُّل ليس عبادةً للوسائط، بل هو استمدادٌ من محبوب الله للوصول إلى الله.

لقد بنى الله العالم على أساس التسلسل الهرمي والوسائط؛

فكما نأكل الطعام للشبع (وسيلة) ونراجع الطبيب للعلاج، فإنَّ الله في الأمور المعنوية أيضاً يحبّ أن يفيض بفضله علينا من خلال عباده المصطفين (الأنبياء والأولياء). أي حينما نجعل أحداً واسطةً، فنحن في الحقيقة نُقِرُّ بصغرنا وعظمة الخالق؛ وكأننا نقول: «إلهي، مع هذا الثقل من الخطايا، أرى المجيء إليك مباشرةً بعيداً عن الأدب، فاستجرتُ بجاهِ أحبائك». هذه الروحية تقتل الكبر والغرور في الإنسان.

التوسُّل ليس مجرد طلبٍ صِرف، بل هو نوعٌ من تجديد البيعة والاتصال القلبي بنماذج الكمال. فحينما نتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام، فإنَّنا في الواقع نؤيد خطهم الفكري والعملي ونحاول الاقتراب من مدارهم. ومن الناحية المنطقية أيضاً، فإنَّ دعاء من هو «وجيهاً عند الله» أسرعُ إجابةً؛ فنحن نستمد من وجاهتهم لنجبر النقص في دعائنا.

لا شكَّ أنَّ الإنسان طالبٌ للكمال، ولتحصيل الكمالات المادية والمعنوية، فهو محتاجٌ إلى ما هو «غيره»؛ أي إلى خارجِ حدودِ وجوده الذاتي. وكما سلف ذكره، فإنَّ عالم الوجود

قد استقام بناؤه على «نظام الأسباب والمسببات»، والتمسكُ بالأسباب والوسائل لنيل الكمالات المعنوية هو من لوازم هذا النظام. ولأجل ذلك، أمر الله تعالى في القرآن الكريم، وكذلك الأنبياء والمعصومون عليهم السلام، بالتوسُّل.

ومن هذا المنطلق، يرى الشيعة وأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام وكثيرٌ من المسلمين أنَّ التوسُّل هو أحدُ أوثق الطرق للوصول إلى السعادة، ولا سيما الشيعة الذين لا يرون في التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام إلَّا مِصداقاً لـ «ابتغاء الوسيلة» و«الاعتصام بحبل الله والعروة الوثقى»، وهو أمرٌ حثَّ عليه القرآن الكريم بل وأمر به صراحةً. فالشيعة لا يعبدون أحداً سوى الله، ولا يجعلون له شريكاً، بل يعتقدون بأنَّ أهل البيت عليهم السلام هم أسبابٌ ووسائلُ للتقرُّب بإذن الله. فكلُّ ما سوى الله «ممكن الوجود»، والله وحده هو «واجب الوجود بالذات»[1].

النتيجة: إنَّ الغرض من التوسُّل في نظرةٍ جامعة وموجزة، هو العبور من «الأنا» والاتصال بـ «الله» عبر الوسائط المقدسة

(١) شكري آرزو، حقوق أهل البيت عليهم السلام، ص١.

التي اعتبرها سبحانه. ويمكن تلخيص هذه الأهداف في ثلاثة محاور:

١. **التقرب إلى المقامات الإلهية**: والهدف الأساس هو إيجاد طريقٍ أقرب وأوثق لنيل رضا الله؛ بالاعتماد على وجاهة من هم محبوبون عنده (كالنبي وأهل بيته عليهم السلام).

٢. **التطهير والشفاعة**: فالتوسُّل يعني جعل «مصدر نورٍ» واسطةً لغسل الروح من الأرجاس وجبران تقصير العبد في مسير العبودية.

٣. **الخروج من المآزق المادية والمعنوية**: فالإنسان في الشدائد والأمراض، يتوسل بالأسباب المعنوية (كالتربة أو الدعاء تحت القبة) مستوثقاً بالقدرة الإلهية لطلب العون، كي ينال الفرج والشفاء وراء قوانين المادة العادية.

وبكلمة واحدة، التوسُّل هو إقرارٌ بفقر العبد وغنى الخالق، أيْ: استخدامُ «وجاهة الوليّ» لاستدرار رحمة الربِّ الذي هو خالق الوجود كله.

الفصل الرابع:
منهجية التوسل

إنَّ منهجية التوسُّل في كلام أهل البيت عليهم السلام هي العبور من الادعـاء والوصول إلى لبِّ الحقيقة. وتقوم هذه المنهجية على ركنين: «الإذن الإلهي» و«العبودية المحضة». فالتوسُّل في هذه المدرسة ليس بمعنى وضعِ قطبٍ في مقابل الله أبداً، بل هو الإلتجاء إلى الله من خلال أحب الخلق إليه. وقد روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِبَادِي! إِنَّ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيَّ وَأَفْضَلَهُمْ لَدَيَّ مُحَمَّدٌ وَأَخُوهُ عَلِيٌّ وَالْأَئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ، فَهُمُ الْوَسَائِلُ إِلَيَّ، فَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ يَقْصِدُ نَفْعَهَا، أَوْ مَنْزِلَةٌ يَبْغِي رِفْعَتَهَا، فَلْيَدْعُنِي بِهِمْ**»[1]. وأيضاً في الرواية لقد قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنَّ الله عزَّ وجلّ يقول: يا عبادي! إنَّ أكرم الخلق عليَّ وأفضلهم لديَّ محمدٌ وأخوه عليٌّ والأئمةُ من بعده، هم الوسائلُ إليّ؛ فمن كانت له حاجةٌ يطلب نفعها أو...**» «**أَوْ دَهَتْهُ دَاهِيَةٌ يَضرهُ ضرهَا،**

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، ج١٠، ص٢٠٧.

فَلْيَدْعُنِي بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ، أَقْضِهَا لَهُ أَحْسَنَ مَا يَقْضِيهَا»[1].

الصيغة العملية المثلى للتوسل:

بناءً على المصادر المذكورة، يمكن صياغة منهجية عملية للتوسل على النحو التالي:

١. الطهارة والثناء الإلهي: (الوضوء، استقبال القبلة، وقول «الحمد لله»).

٢. الصلاة الأولى: (اللَّهم صل على محمد وآل محمد).

٣. بيان وجاهة الأولياء: (إلهي، بوجاهة هؤلاء الأعزاء عندك).

٤. ذكر الحاجة: (طلب محدد).

٥. الصلاة الأخيرة: (اللَّهم صل على محمد وآل محمد).

النتيجة:

إنَّ تحليل «نماء التوسل» في ساحة التربية المعنوية، يُظهر عمليةً حركيةً وتكاملية، لا يُعتبر فيها «التوسل» مجرد محطة، بل هو محرّكٌ للنمو يهدف إلى تقييم وارتقاء الشاكلة الإنسانية. وعلمياً، يمكن

(١) الشيخ الحر العاملي: وسائل الشيعة، باب استحباب الاستشفاع في الدعاء بمحمد وآل محمد، ج٧، ص١٠٣.

تبيين هذا البحث في ثلاثة مستويات:

أ- **الانتقال من «المركزية الذاتية» إلى «المركزية الحقَّة»**: يُظهر نماء التوسُّل أنَّ الفرد - من خلال التمسُّك بأهل البيت عليهم السلام - يخرج من دائرة الأنانية الضيقة ليستقر في مدار الولاية الإلهية. هذه الهجرة الداخلية هي الخطوة الأولى في نمو الشخصية المتكاملة.

ب- **إعادة بناء الهوية على مدار النماذج المتعالية**: التوسُّل هو آليةٌ للتغذية الراجعة المستمرة؛ إذ يقوم المتَربِّي من خلال مواجهة سيرة المعصومين بإعادة ضبط معاييره الأخلاقية. هذا النمو يؤدي إلى نوعٍ من «تجديد الهوية»، حيث تحلُّ الفضائل المستقرة محلَّ الرذائل في ضوء المحبة والمعرفة لأهل البيت عليهم السلام... لِتَحِلَّ مَحَلَّهَا رَوائِحُ الفَضائِلِ الْمُستَقِرَّةِ.

ج- **الفاعلية وتوجيه القوة الإرادية**: تذهب هذه الدراسة الكمالية الى اعتبار التوسُّل «مبدأ لانبعاث القوة المحركة»؛ فخلافاً لما يتوهَّم من كونه حالة من الخمود والركود، فإنَّ التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام - باعتبارهم «الحبل المتصل» بين الحق والخلق - يعمل على سياقة إرادة العبد نحو «السيرورة الإلهية»، ويحول

دون «الاضمحلال الروحي» وفتور الهمَّة عند ورود العقبات في مسلك التربية والسلوك.

وتقضي منهجية التوسُّل بالحقائق التالية: «أطرقوا باب الله من حيث أمر»، فالتوسُّل في جوهره هو سجدة العبد الطويلة بين يدي العظمة الإلهية، في مقام يكون فيه قلب العبد فانياً في الله، ويده قابضة على عروة النبي وآله الطاهرين عليهم السلام.

القسم الثاني:
الأسس النظرية والمقاربات العقلية

التوسُّل في ميزان العقل والنقل:

مَنْهَجِيَّةُ التَّوَسُّلِ (من قشر الدعوى إلى لباب الحقيقة): إنَّ منهجية التوسُّل في مدرسة أهل البيت عليهم السلام تبتني على الانتقال من «ظواهر الادعاء» إلى «حقائق الانقطاع»، وقوام هذه المنهجية يرتكز على ركنين أصيلين: «الإذن الإلهي» و«العبودية المحضة». فليس التوسُّل في هذا المشرب الروحي إثباتاً لذاتٍ في عرض الحق سبحانه.

الاستشفاع بأولياء الله تجلي الوساطة في الفيض:

روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِبَادِي! إِنَّ أَكرَمَ الخَلقِ عَلَيَّ وَأَفضَلَهُم لَدَيَّ مُحَمَّدٌ وَأَخُوهُ عَلِيٌّ وَالأَئِمَّةُ بَعدَهُ، فَهُمُ «الوَسَائِلُ» إِلَيَّ. فَمَن كانَت لَهُ حَاجَةٌ يَنفَعُهُ**

نَفْعُهَا، أَو دَهَتهُ دَاهِيَةٌ يَضرهُ ضرهَا، فَلْيَدْعُنِي بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ، أَقضِهَا لَهُ أَحسَنَ مَا يَقضِيهَا»[1].

المسلك الحق في حقيقة التوسل:

إنَّ أكمل مسالك التوسُّل في المدرسة الكلامية والتربوية لآل البيت عليهم السلام هو المنهج الذي تلتئم فيه أركان «المعرفة، والأدب، والتسليم». واستناداً إلى المأثور من الروايات والسيرة المعصومية، فإنَّ التوسُّل ليس مجرد نداء صوري، بل هو «بنيان عبادي» متكامل الأركان.

ويمكن تبيين المراتب العليا للتوسل وفق الآتي:

١. مرتبة «الإستشفَاع المُبَاشر» (يَا وَجِيهاً عِنْدَ اللهِ):وهو المنهج المتجلي في «دعاء التوسل»، ومبناه يقوم على جعل المعصوم واسطة إلى الحق سبحانه لِما له من «المنزلة والوجاهة» لديه.

«...إذ يستشفع العبد بالمعصوم ويجعله وسيلة لفيض الله بفضل مكانته القدسية، ففي هذا المسلك، يتوجه الخطاب إلى ولي الله ليكون هو (المطالب) من الله تعالى في قضاء الحاجة، فنقول:

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، ج١٠، ص٢٠٧.

«**يَا وَجِيهاً عِنْدَ اللهِ اِشْفَعْ لَنا عِنْدَ اللهِ**». والعبد في هذا المقام لا يرى للولي «قدرة استقلالية» أبداً، بل يعتقد بكونه «شفيعاً» (أي واسطة في نيل الطلب)»[1].

٢. مسلك «الإقسام على الله بِحَقِّ الأَوْلِيَاءِ»: وفي هذا المشرب، يكون الخطاب متوجهاً إلى ساحة الحق سبحانه وأسمائه الحسنى، مع جعل «الأحبّية والمكانة» التي يتمتع بها الأولياء عند الله وسيلة لاستنزال الرحمة. وهذا المسلك له أصل أصيل في السيرة النبوية والمأثور عن العترة الطاهرة عليهم السلام، كقولهم: «**اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد...**» أو التوسُّل بمقامهم كقول: «**بحق محمد وآل محمد**»[2].

٣. مسلك «محورية الصلاة على النبي وآله» (أَرقى الأَسَالِيبِ الكَلَامِيَّةِ): يَرَى المُتَكَلِّمُونَ وَالعُرَفَاءُ أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ هي «أتمُّ مصاديق التوسل» وأحكمها؛ وذلك لأنَّ الصلاة دُعاءٌ مفروغٌ من إجابته عند الله، فإذا جعل الداعي

(١) بحار الأنوار: ج٩٩، ص٢٤٧. حيث أورد المجلسي دعاء التوسُّل كمجرب لإنجاح المقاصد العظام.

(٢) الشيخ الطوسي: مصباح المتهجد، ص٥٤٧. (في آدَابِ الدُّعَاءِ)، وص٥٨٣. (في تعليم كيفية الدعاء بأسماء الأئمة عليهم السلام). أُنظُر أَيضاً: الكُلَيني: الكَافِي، ج٢، ص٥٨٣.

حاجته محفوفة بصلاة في أولها وصلاة في آخرها، فإنَّ كرم الله يقتضي قبول «الوسط» ببركة قبول «الطرفين».

وكما جاء في نهج البلاغة: «إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله ﷺ ثم سل حاجتك...»[1].

٤. الزِّيَارَةُ (أكمل وعاء للتوسل): يُعدُّ مسلك الزيارة القالب الأجمع للتوسل؛ لكونه يشتمل على مراتب التحية، والتعظيم، ثم المسألة والدعاء. ومن بين عموم النصوص، تبرز «الزيارة الجامعة الكبيرة» بوصفها المتن الكلامي الأوفى لمباني التوسُّل و«المعرفة بالمقامات»، حيث تُختتم بإعلان الفناء والتمسك بقول الزائر: «...**فَمَعَكُمْ مَعَكُمْ لا مَعَ عَدُوِّكُمْ**»[2].

أَفضَلُ صِيغَةٍ عَمَلِيَّةٍ لِلتَّوَسُّلِ:

إذا أردنا كتابة منهج عملي (خوارزمية) بناءً على المصادر المذكورة، فإنَّ الطريقة المثلى هي كما يلي:

١. الطهارة والثناء الإلهي: (الوضوء، الاستقبال نحو القبلة،

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٦١ (نسخة صبحي صالح) وأيضاً ابن فهد الحلي: عدة الداعي، ص١٦٣.

(٢) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١٥ (بَابُ الزِّيَارَةِ الجَامِعَةِ).

وقول «الحمد لله»).

٢. الصلوات الأولى: (اللَّهم صلِّ على محمد وآل محمد).

٣. بيان وجاهة الأولياء: (إلهي، بحق وجاهة هؤلاء الأعزاء عندك).

٤. بيان الحاجة: (طلب محدد).

٥. الصلوات الأخيرة: (اللَّهم صلِّ على محمد وآل محمد).

النتيجة: إنَّ تحليل «علم نموُّ التوسل» (رويش‌شناسى توسل) في سياق التربية المعنوية، يُظهر عملية حيوية وتكاملية؛ حيث لا يُعد التوسُّل فيها مجرد «محطة»، بل هو «محرِّك للنمو» للتقييم والارتقاء بالبنية الإنسانية. ومن الناحية العلمية، يتم تبيين هذا المبحث في ثلاثة مستويات:

١. الانتقال من «المحورية الذاتية» إلى «المحورية الحقّة»: يُظهر علم نمو التوسُّل أنَّ الفرد، عبر التمسك بأهل البيت عليهم السلام، يخرج من دائرة الأنانية الضيقة ليستقر في مدار الولاية الإلهية. هذه الهجرة الداخلية هي الخطوة الأولى في نمو الشخصية المتكاملة، حيث تنهار «الأنا المجازية» لتزدهر «الأنا الحقيقية» في ظل الاتصال بوسائط الفيض.

٢. إعادة بناء الهوية على مدار النماذج المتعالية: التوسُّل هو آلية للتغذية الراجعة المستمرة. فالمتربّي، من خلال مواجهته لسيرة المعصومين، يقوم بإعادة ضبط معاييره الأخلاقية. هذا النمو يؤدي إلى نوع من «تجديد الهوية»، حيث تُستبدل الرذائل بفضائل مستدامة في ضوء المحبة والمعرفة لأهل البيت عليهم السلام.

٣. حيوية الإرادة وتوجيهها: في هذا العلم، يؤدي التوسُّل إلى «توليد الطاقة للحركة». وخلافاً للتصورات القائمة على السكون، فإنَّ التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام بوصفهم «حبل الله»، يوجِّه إرادة الفرد في مسار الصيرورة نحو الله، ويمنع التآكل الروحي عند مواجهة تحديات المسار التربوي.

الخلاصة: يُثبت علم نمو التوسُّل أنَّ الارتباط بأهل البيت عليهم السلام هو عملية تحوُّل نوعي في هيكلية الوجود الإنساني. هذا النظام يجعل «بذور المواهب الإلهية» تُثمر في صحراء الماديات، بحيث يكون التوسُّل هو «عامل النمو» و«حارس ثمرة الكمال» في نفس الإنسان معاً. تخبرنا منهجية التوسل: «**ادعوا الله من الباب الذي فتحه هو نفسه**». التوسُّل هو سجود العبد الطويل أمام عظمة الله، بينما يده في يد النبي وآله عليهم السلام.

القسم الثالث:
الأسس النظرية للأدلة العقلية

الفصل الأول: تلاقي العقل والشهود في مسير التقرب:

إنَّ البحث عن الحقيقة والسعي للقرب من مبدأ الوجود، غايةٌ طالما نَشَدَها الإنسان منذ القِدَم. وفي هذا المسار، استعان البشر بأدوات شتَّى يُبيِّن كلٌّ منها - من زاويةٍ خاصة - طبيعة العلاقة بين «الخالق» و«المخلوق».

- الفلسفة والكلام: أدوات المعرفة:

نواجه في هذا القسم أولاً «الفلسفة» التي تتبنى رؤية عقلانية برهانية لتبيين نظام الوجود وإثبات واجب الوجود. وإلى جانبها، يأتي «علم الكلام» بوصفه حارساً للعقائد الدينية، حيث يسعى عبر الاستدلالات العقلية والنقلية إلى تبيين التعاليم الوحيانية والدفاع عنها أمام الشبهات. إنَّ الترابط بين هذين الحقلين يُشكِّل

ركيزةً صلبة لفهمٍ أعمق لمفاهيم مثل «الشفاعة» و«الوساطة».

- التوسل: جسر التواصل بين الحاجة والغنى:

التوسُّل ليس بمعنى استبدال الوسيلة بالله، بل هو التمسك بالحبال الإلهية للوصول إليه سبحانه. فمن وجهة نظر كلامية وفلسفية، بُني العالم على «نظام الأسباب والمسببات»، والتوسُّل في حقيقته هو معرفة والاستفادة من أسمى هذه الأسباب.

- التجلي الإلهي في الأسماء والكلمات:

يتمثل المحور الجوهري في هذا البحث بدراسة التوسُّل بـ «الأسماء الحسنى» و«القرآن الكريم»:

أسماء الله: كل اسمٍ من الأسماء الإلهية هو نافذةٌ تطلُّ على صفةٍ من صفات كماله.

القرآن الكريم: بوصفه «الثقل الأكبر»، هو أسمى وسيلةٍ جعلها الله لهداية البشر وتقربهم إليه. وفي الواقع، فإنَّ التوسُّل بأسماء الله وآيات الوحي هو عودةٌ إلى حقيقة أنَّه للوصول إلى «الحق»، لا بدَّ من عبور الطريق الذي رسمه هو بنفسه.

خلاصة المقدمة: يسعى هذا البحث إلى تبيان كيف أنَّ العقل

(الفلسفة والكلام) إلى جانب النقل (القرآن والسنة)، يثبِّتان بانسجامٍ وتناغم مكانة «التوسل» كضرورةٍ معرفية ومعنوية في النظام التوحيدي.

الفصل الثاني: التوسُّل من منظور العقل

إنَّ مسألة التوسُّل، قبل أن تكون بحثاً تعبّدياً وشرعياً، تضرب بجذورها في القواعد العقلية؛ إذ يحكم العقل السليم بأنّ الوصول إلى الغايات العظمى والتقرب من الساحة القدسية الإلهية، يتطلب الاستعانة بوسائط لها وجاهةٌ عنده سبحانه، وهذا أمرٌ ليس جائزاً فحسب، بل هو عين المنطق.

١. أصل السنخية والضرورة الوجودية للواسطة:

وفقاً لـ «أصل السنخية» في البراهين الفلسفية، يجب أن يكون هناك تناسبٌ وسنخية بين العلة والمعلول. الله سبحانه هو الكمال المطلق والوجود الصرف، بينما الإنسان غارقٌ في الماديات والنواقص. ولاتصال هذا الموجود الناقص بذلك الكمال اللامتناهي، تصبح وجود واسطة فيض - تغلب عليها

جنبتها الملكوتية - أمراً ضرورياً. وقد أشار الحكيم ملَّا هادي السبزواري إلى هذه الضرورة في كتابه المنظومة[1].

٢. نظام الأسباب والمسببات:

من منظار نظام الأسباب، يحكم العقل بأنَّ عالم الوجود قائمٌ على تراتبية ونظام «العلة والمعلول». وإنَّ الله تعالى لا يفيض بفضله على الموجودات - غالباً - إلَّا من خلال المجاري والأسباب التي جعلها هو لتدبير الأمور. فكما أنَّ مراجعة الطبيب (كواسطة للشفاء) أمرٌ عقلائي، فإنَّ الرجوع إلى «وسائط الفيض» (الأنبياء والأولياء) في الشؤون المعنوية هو أمرٌ منطقي أيضاً. التوسُّل هو استمدادٌ من واسطةٍ غدت مجرىً للفيض الإلهي بسبب قربها المعنوي، وهذا ليس مخالفةً للقانون الإلهي، بل هو احترامٌ للنظام الذي وضعه الله في الكون[2].

٣. دفع شبهة عقلية (التوسُّل أم الشرك؟):

يتوهَّم البعض أنَّ التوسُّل يعني إشراك غير الله معه. بيد أنَّ

(١) ينظر: شرح المنظومة، قسم الحكمة، المقصد الثالث في علم الوجود، ص١٦٥.

(٢) ينظر: العلامة الطباطبائي: تفسير الميزان، ذيل الآية ٣٥ من سورة المائدة، ج٥، ص٣٢٨، طبعة بيروت، مؤسسة الأعلمي.

العقل يفرِّق بين «الاستقلال في التأثير» وبين «الشفاعة». فمن اعتقد أنَّ النبي أو الإمام يعمل مستقلاً ومن دون إذن الله، فقد أشرك؛ أمَّا من اعتبرهم مجرىً لإرادة الله، فهذا هو عين التوحيد. كما أشار إلى ذلك آية الله جعفر السبحاني في رده على الشبهات[1].

وفي هذا السياق، أكَّد عبقري العقل والاستدلال، المحقق الخواجه نصير الدين الطوسي، في مباحث الإمامة والنبوة، أنَّ وجود الإمام ضرورة عقلية من باب «قاعدة اللطف»، لتقريب العباد نحو الطاعة الإلهية[2].

٤. حياة البرزخ وتجرد الروح:

يرتكز التوسُّل على أصل بقاء روح الإنسان بعد الموت، فوعي الروح لا يقلّ، بل يزداد سعةً بسبب تحررها من القيود المادية. وبما أنَّ تجرد الروح قد ثبُت بالبراهين العقلية والفلسفية، فإنَّ الموت ليس إلَّا تبديلاً للثياب.

(١) ينظر: ثقافة العقائد والمذاهب الإسلامية: ج٣، ص٢٤٥، قسم الشفاعة والتوسُّل.

(٢) ينظر: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: المقصد الرابع والخامس، ص٤٤٨. وبناءً على هذا، يقول العقل: إذا اتخذ الملك وزراء، فإنَّ مراجعة هؤلاء الوزراء لإيصال الطلب إلى الملك ليست إهانةً للمقام السلطاني، بل هي رعايةٌ لمكانته ونظامه.

وبناءً عليه، فإنَّ طلب الدعاء من وليِّ الله الحيِّ بلقاء ربه والواعي لما حوله، ليس طلباً من موجودٍ معدوم ليكون لغواً أو عبثاً بلا فائدة[1].

تفكيك شبهة الشرك:

إنَّ شبهة الشرك في مسألة التوسُّل لا تكون مقبولة إلَّا إذا اعتقدنا بأنَّ الوسائط الإلهية تستطيع قضاء حوائج العباد بشكلٍ مستقل، في حين أنَّ الشيعة لا يعتقدون بهذا أبداً، بل يؤمنون بأنَّ التوسُّل بالوسائط الإلهية - ومنهم الأئمة الأطهار عليهم السلام - لا يعني قضاء الحاجة من قِبَلهم استقلالاً، بل يعني أنَّ هناك صفوةً من الخلق يمتلكون - بسبب مقامهم ومنزلتهم - أهلية الوساطة بين المخلوق والخالق لقضاء الحوائج المادية والمعنوية[2].

وفي كثير من الأحيان، يكون التوسُّل والاستمداد بأولياء الله طلباً للهداية نحو غاية الخلق وهي «العبودية»، وبما أنَّ الوسائط

(١) ينظر: ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، النمط الثامن. ملا صدرا: الشواهد الربوبية، ص٢١١. سيد جمال الدين دينپرور: موسوعة نهج البلاغة، ج١، ص٢٢١-٢٢٢.

(٢) ينظر: جواد محدثي: ثقافة الغدير، ص١٥٦-١٥٩.

الإلهية وأهل البيت عليهم السلام قد سلكوا هذا المسار لقربهم من الله، فإنَّهم الأقدر على إعانتنا في طريق العبودية. لذا، فإنَّ التوسُّل الذي يهدف إلى استرشاد أولياء الله لا يمكن أن يمتَّ إلى الشرك بصلة.

التوسُّل وسنن الخلقة في القرآن:

لقد أدار الله نظام الخلقة على أساس قاعدة «العلة والمعلول» أو «الأسباب والمسببات»؛ لكي تصل جميع النعم عبر مجاريها الطبيعية إلى الموجودات، كما يشير القرآن الكريم إلى هذا التدبير السببي: ﴿**أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا**﴾[1]، وكما هو متعارفٌ بين العقلاء، فإنَّ العطشان إذا لم يذهب إلى وسيلة ريِّ العطش (وهي الماء) فلن يرتوي، وبناءً عليه، يمكن القول إنَّ جميع النعم المادية والمعنوية تخضع لقاعدة العلية، ولا بدَّ أن تمرَّ عبر الوسائط، وهذا الأمر بتصريح القرآن الكريم يمثل جُزءاً من «السنن الإلهية». وبهذا البيان، يُردُّ على شبهة الشرك: إنَّ قضاء الحوائج وإدارة شؤون العباد لا يشذُّ عن قاعدة العلية، فلا بدَّ للوصول إلى الغايات من

(١) سورة عبس: الآيات ٢٥-٢٨.

التمسك والاتصال بالوسائط الإلهية.

النتيجة: إنَّ الإثبات العقلي للتوسل، قبل أن يرتبط بالنصوص الدينية، يعود إلى تحليل علاقة العلة والمعلول ونظام الخلق. وفيما يلي ملخصٌ لأهم البراهين العقلية في هذا المجال:

١. نظام الأسباب والمسببات (قانون الوساطة): يحكم العقل بأنَّ الله بنى الكون على أساس النظم والأسباب. فكما أنَّنا نأكل لنشبع ونراجع الطبيب للعلاج (مع الإيمان بأنَّ المسبِّب الحقيقي هو الله)، فإنَّ الرجوع إلى «وسائط الفيض» في الأمور المعنوية ليس شركاً، بل هو انسجامٌ مع السنَّة الإلهية.

ملاحظة: التوسُّل ليس استبدالاً لله بأحد، بل هو استخدامٌ للوسيلة التي وضعها الله بنفسه.

٢. برهان القابلية (التفاوت في المراتب الوجودية): ليس كل البشر على مستوى واحد من الروحانية والطهارة. ويقول العقل: للاتصال بمصدر الكمال اللامتناهي (الله)، من الأفضل الاستعانة بمن هم أكثر قابليةً وقرباً من ذلك المركز.

٣. تلازم حُبِّ الله وحُبِّ الأولياء: يحكم العقل بأنَّ محبة «المعلول» تنبع من محبة «علَّته». فمن كان عاشقاً لله، سيعشق بالضرورة أحباءه المقربين. والتوسُّل في الحقيقة هو إظهار المحبة لله من خلال تكريم من يحملون صبغة الله ونوره.

٤. عدم محدودية الروح بالجسد (بقاء النفس): من الناحية العقلية، ليس الموت نهايةً لوجود الإنسان، بل هو خروج الروح من قفس البدن. فالروح التي كانت منشأً للأثر في حياتها المادية، تكتسب بعد الموت (بسبب تحررها من القيود المادية) قدرةً وإشرافاً أوسع. بناءً على ذلك، فإنَّ طلب الدعاء من الأرواح الطيبة هو طلبٌ معقول من «موجودٍ حيٍّ وواعٍ».

النتيجة: التوسُّل من منظور العقل هو «إيجاد أقصر الطرق وأوثقها لاستدرار الرحمة الإلهية عبر وسائط لها وجاهةٌ عنده». وهذا يشبه تماماً الاستعانة بـ«وسيطٍ معتبر» في العلاقات الاجتماعية لحلِّ معضلةٍ كبرى.

التوسُّل في ميزان القرآن الكريم

المقدمة: القرآن الكريم؛ فصل الخطاب في المناقشات الكلامية:

إنَّ الولوج في المباحث الكلامية المحورية والمثيرة للجدل، ولا سيما المسائل من قبيل «التوسُّل» التي طالما شكَّلت أرضية لتضارب الآراء بين المذاهب الإسلامية، يستلزم الوصول إلى مصدر أصيل، متعالٍ عن الفئوية ومحل اتفاق الجميع. وفي منظور المعرفة الدينية، يُعتبر القرآن الكريم بوصفه الكلام الموحى به من لدن ذات الحق الأقدس، المرجع الأسمى والأحكم والأطهر لحسم أيِّ خلاف أو مناقشة بين المسلمين؛ إذ إنَّ هذا الكتاب السماوي مصون من كل تحريف أو خطأ، وهو المبين للحقائق المحضة.

وقد حدَّد الله تعالى في الآية (٥٩) من سورة النساء المباركة الاستراتيجية النهائية لحل النزاعات بإرجاعها إلى الأمر الإلهي، حيث يقول سبحانه: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ**

﴿وَالرَّسُولِ﴾؛ وبناءً على آراء مفسري الفريقين، فإنَّ الرجوع إلى الله في الزمان البعدي لرحيل الرسول الأكرمﷺ، هو عينه التمسك بكتابه، أيْ: القرآن الكريم[1].

كما نصَّت الآية (١٠) من سورة الشورى المباركة على هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾، وهذا البيان الوحياني يثبت جلياً أنَّ الحكم النهائي و«فصل الخطاب» في كافة الخلافات الفكرية والعقائدية إنَّما يُصاغ في فضاء كلام الله تبارك وتعالى[2]. وعليه، فإنَّ الارتكاز على الاحتجاجات القرآنية في تجلية مسألة التوسُّل، ينأى بالبحث عن الأذواق المذهبية، والتعصبات الطائفية، والتلقيات العامية، ويربأ به إلى الأفق السامي لمحكمات الوحي؛ إذ ليس ثمَّة دليل في العالم الإسلامي أوثق ولا أقدس ولا أنفذ من كلام رب العالمين، وكل أطروحة كلامية تروم وشاح المشروعية، لا محيص لها من

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج٤، ص٣٩١.

(٢) محمد بن عمر الفخر الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ج٢٧، ص١١٥.

العبور فوق محك السبر والتقييم القرآني.

الإحتجاج القرآني على مشروعية التوسُّل:

إنَّ البحث في النظم المعرفي الدقيق للقرآن الكريم يظهر بأنَّ نظام الخلق والهداية قد بُني على أساس «وسائط الفيض»، وأنَّ التمسك بهذه الوسائط لا يتنافى مع التوحيد الأفعالي فحسب، بل هو عين الإنقياد للمشيئة الإلهية في مسير التقرب. فقد دعا الله تعالى المؤمنين في الآية (٣٥) من سورة المائدة المباركة بالخطاب: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ ابتغاء وسيلة تضمن لهم القربى، والوسيلة في اللغة هي ما يُتقرَّب به إلى الغير برغبة[1]، وإطلاق هذه المفردة في الآية يشمل كل ما له وجاهة عند الله تعالى، بدءاً من الأعمال الصالحة ووصولاً إلى الذوات المقدسة للأنبياء والأولياء.

وفي هذا السياق، طرح القرآن الكريم في الآية (٦٤) من سورة النساء التوسُّل بالمقام الشامخ للنبي صلى الله عليه وآله بوصفه سبيلاً لقبول توبة المذنبين حيث يقول عز وجل: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**

(١) الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ط١، دمشق، دار العلم، ١٤١٢هـ، ص٨٧١.

جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وفي هذا البيان الوحياني، يحمل قيد «**جَاءُوكَ**» واستغفار الرسول صلى الله عليه وآله بمعية استغفار العبد، دلالة صريحة على مقام الوساطة والشفاعة، وهو ما يُصطلح عليه في علم الكلام بـ «التوسُّل بدعاء الولي». كما أنَّ السيرة القرآنية في حكاية أبناء يعقوب عليه السلام إذ تمسَّكوا بأبيهم قائلين: ﴿**يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا**﴾[1]، والإجابة الإيجابية من ذلك النبي الإلهي بقوله: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾[2]، تعد سنداً متقناً على مشروعية طلب الدعاء من أصحاب الوجاهة والمنزلة.

وتثبت هذه الآيات جلياً أنَّ التوحيد الخالص لا يتنافى مع جعل وجهاء بلاط الحق وسائط، إذ لم يُلحظ أي أثر استقلالي للوسيلة، بل إنَّ تمام القدرة والتأثير منتسبٌ إلى إذن ذات الباري الأقدس وإرادته[3].

(١) سورة يوسف، الآية ٩٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٩٨.

(٣) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج٥، ص٣٢٨ (ذيل الآية ٣٥ من سورة المائدة).

استمرار الاحتجاج القرآني: الوجاهة والإذن في نظام الوساطة:

عند تبيين نظام التوسُّل تبييناً دقيقاً، ينبغي الالتفات إلى أنَّ القرآن الكريم ينفي فكرة «استقلالية الوسائط»، بيد أنَّه يثبت أصل «الوساطة المقترنة بالإذن الإلهي». فقد رهن رب العزة في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة المباركة دائرة تأثير الأولياء بمشيئته وإرادته من خلال بيانه الصريح: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾؛ ومن ثمَّ، فإنَّ التوسُّل في حقيقته هو تمسك بـ «إذن الله» لاستجلاب الرحمة الإلهية.

وقد تجلت هذه المكانة والوجاهة للعباد المصطفين في الآية (٥٥) من سورة المائدة المباركة تحت عنوان «الولاية»: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهَ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾. ويرى كبار المفسِّرين كالطبري والفخر الرازي[1]، أنَّ نزول هذه الآية كان في شأن الإمام علي عليه السلام، وهي تشير إلى ترابط الولاية الإلهية بولاية الأولياء، والتي تمثل بنفسها

(١) انظر: محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ، ج٦، ص٢٨٨. محمد بن عمر الفخر الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ج١٢، ص٢٦.

أسمى «وسيلة» للتقرب.

علاوة على ذلك، فقد نسب القرآن الكريم في سورة آل عمران دعاء الأنبياء في حق الآخرين وتأثيرهم الوجودي إلى إذنه سبحانه حيث يقول: ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ**﴾[1]، وتثبت هذه الآية بوضوح أنَّه إذا كان النبي قادراً على إحياء الموتى بإذن الله، فبإمكانه يقيناً أن يكون بإذنه «وسيلة» لغفران الذنوب وقضاء حوائج المؤمنين. بناءً على ذلك، يقوم المنطق القرآني في التوسُّل على نفي المحورية الذاتية وإثبات المحورية الإلهية عبر مجاري صفوته، كما ورد في سورة التوبة: ﴿**أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ**﴾[2]. وفي هذه الآية، عُطف عطاء الرسول على عطاء الله، مما ينم عن مشروعية انتساب الفضل إلى واسطة الفيض[3].

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥٩.

(٣) إسماعيل بن عمر (ابن كثير): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ، ج٣، ص١٣٨ (ذيل آية الولاية).

تبيين القرآني للتمايز المفاهيمي بين التوسُّل والشرك:

إنَّ من أبرز التحديات الكلامية في باب التوسُّل، هو خلط المفهوم بين «التمسُّك بالوسائط المأذونة» و«عبادة الأصنام»، وهي شبهة تندثر تماماً عند الفحص الدقيق في الطبقات الدلالية لآيات الوحي. ينقل القرآن الكريم في تبيين دوافع عبدة الأصنام في الآية (٣) من سورة الزمر المباركة على لسانهم: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾، والتدبُّر في هذا البيان الوحياني يجلي أنَّ نقطة انحراف المشركين تكمن في قيد ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ**﴾. وفي واقع الأمر، إنَّ علة إدانتهم في محكمة القرآن المقتدرة، هي «عبادة وسدنة» الأصنام بوصفها موجودات مستقلة أو مالكة لحق الشفاعة الذاتية، في حين أنَّ المؤمنين في ثقافة التوسُّل لا يعبدون أولياء الله قط، بل يعدُّونهم عباداً مقربين ووجهاء في بلاط الحق سبحانه. كما أنَّ ذات الباري الأقدس ينفي في الآية (١٨) من سورة يونس المباركة نظام الشفاعة المزعوم للمشركين قائلاً: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ**﴾، وفي هذه الآية أيضاً، يدل تعبير ﴿**مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ على أنَّ المشركين كانوا يرتؤون لأصنامهم شأناً مستقلاً

عن الإرادة الإلهية[1]. هذا في حين أنَّ أولياء الله يقعون في طول الإرادة الإلهية ومجرى فيضه سبحانه.

علاوة على ذلك، يثبت القرآن الكريم في الآية (٨٦) من سورة الزخرف المباركة أصل الشفاعة للذين شهدوا بالحق وكانوا من أهل العلم، حيث يقول: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾، وهذا الاستثناء القرآني يبيِّن صراحة أنَّ الشاهدين بالحق قد مُلِّكوا من لدن الله شأن الشفاعة والوساطة[2]. وبناءً على ذلك، فإنَّ قياس توسُّل المؤمنين بالذوات المقدسة بعمل المشركين، هو قياس مع الفارق، وناشئ من عدم إدراك الحد الفاصل بين «التأثير الاستقلالي» (وهو الشرك) و«التأثير التبعي المأذون» (وهو عين التوحيد).

دراسة كلامية لبنية الحياة البرزخية في منطق الوحي:

إنَّ من الأركان الأساسية في تحليل مشروعية التوسُّل بالذوات

(١) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج١٠، ص٢٥.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ج٢٧، ص٢٣٧.

المقدسة بعد رحيلها عن النشأة المادية، هو إثبات تجرُّد النفس واستمرار حياتها البرزخية في مقابل الحق سبحانه، وهي حقيقة أكَّدت عليها آيات متعددة من القرآن الكريم، وأبطلت بها تماماً وهم «الفناء المحض بعد الموت». يقول الله تعالى في الآية (١٦٩) من سورة آل عمران المباركة بصراحة لا مثيل لها في شأن المقتولين في سبيل الحق: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾. وإنَّ دلالة هذه الآية التطابقية على استمرار الحياة، والرزق، والحضور الواعي للشهداء في المحضر الربوبي أمر لا يمكن إنكاره، هذا في حين أنَّ المقام والمنزلة الوجودية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأوصيائه المعصومين عليهم السلام، هي بأشواط أسمى وأعلى من عموم الشهداء بناءً على محكمات العقل والنقل[1].

علاوة على ذلك، فإنَّ ذات الباري الأقدس في الآية (١٥٤) من سورة البقرة المباركة، قد نهى المجتمع الإيماني حتى عن إطلاق لفظ الموت على هؤلاء المصطفين حيث يقول: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ**

(١) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج٤، ص٤١.

﴿يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، ويبيِّن قيد ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ جلياً أنَّ هذا العدم في الإدراك والانقطاع، إنَّما يعود إلى الحواس المادية للإنسان المحصور في جلباب الدنيا، لا أنَّ خللاً قد طرأ على حقيقة حياتهم. كما تجلى المظهر العيني لهذا الارتباط والسمع في نشأة البرزخ، في الآية (٤٦) من سورة غافر المباركة، حيث الحديث عن العذاب الصباحي والمسائي لآل فرعون قبل قيام القيامة الكبرى[١].

ومن جهة أخرى، دعا القرآن الكريم في الآية (٤٥) من سورة الزخرف المباركة، النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمخاطبة الرسل السابقين وحوارهم، إذ يقول تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾، وهذا الأمر الإلهي هو بنفسه خير دليل على إمكانية الارتباط، والتكلم، والاستماع بين الأرواح المطهرة للأولياء في ساحة الملكوت. وبناءً على ما رسمه جريان الوحي، فإنَّ أولياء الله بعد انتقالهم من هذا العالم، يتبوأون مرتبة أرقى من الحياة والوعي، ولذا فإنَّ خطابهم وطلب الوساطة والدعاء منهم، هو

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج٢٧، ص٦٨.

تمسك بموجودات حية، واعية، ومأذونة في بلاط الحق سبحانه.

الصلاة والتحيات الإلهية: طريقة الارتباط التكوينية للأمة بالأولياء الصالحين:

إنَّ من المظاهر البارزة الأخرى للمنطق القرآني في تثبيت الارتباط الدائم للمؤمنين بوسائط الفيض الإلهي، هو تشريع الصلوات والسلام على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام، وهو ارتباط يتخطى حدود الزمان والمكان الماديين، فقد عرَّف الله تعالى حقيقة الصلاة بوصفها جرياناً دائماً وملكوتياً في الآية (٥٦) من سورة الأحزاب المباركة إذ يقول سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾. وإنَّ الأمر المطلق في قوله ﴿**صَلُّوا**﴾ و﴿**سَلِّمُوا**﴾ في هذه الآية الشريفة، يدلُّ على وجوب أو استحباب مؤكد لمخاطبة رسول الله صلى الله عليه وآله مخاطبة مباشرة في الأزمنة كافة، وهو أمر أجمع مفسرو الفريقين على جريانه العبادي والدائم[1].

ومن جهة أخرى، وسَّع ذات الباري الأقدس دائرة هذه

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ، ج٦، ص٤٥٧.

التحية والسلام المأذون لتشمل بيت الهداية المنظم، وذلك في الآية (١٣٠) من سورة الصافات المباركة ببيانه: ﴿**سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ**﴾، وهو سلام يتوجه إلى العترة الطاهرة عليهم السلام بناءً على الروايات المعتبرة الواردة في ذيل الآية[١]. والتدبُّر في حقيقة «السلام» يُظهر أنَّه ليس وارد لغواً، بل هو إنشاء للدعاء بالسلامة وإفاضة الرحمة؛ ولذا فإنَّ الأمر بالتسليم على النبي صلى الله عليه وآله في التشريع الإسلامي (ولا سيما في تشهد الصلوات بالعبارة الصريحة: «السلام عليك أيُّها النبي») يستلزم «سماعاً» لذلك المحضر المقدس، إذ إنَّ الخطاب الحسي لموجود لا يسمع ولا يكون ماءً للبركة، لا يتسق مع حكمة التشريع الإلهي[٢]. وبناءً على ذلك، فإنَّ الجريان المستمر للصلوات والسلام في الثقافة القرآنية، هو تبلور عيني لشبكة ارتباطية بين الأمة والأولياء، يستمد المؤمنون من خلالها بالذوات المقدسة وجعل تحياتهم واسطة للتقرب إلى البلاط الربوبي، وهذا بعينه هو حقيقة التوسُّل ولبابه.

(١) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ، ج٢٣، ص٩٦.

(٢) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج١٦، ص٣٣٨.

عرض الأعمال: الشهود الملكوتي والوساطة الرقابية للأولياء:

إنَّ استكمال النظرة الدقيقة للاحتجاج القرآني في مسألة التوسُّل يقتضي تبيين شأن «الإشراف والرقابة العملية» لأولياء الله على أحوال الأمة، علاوة على إثبات الحياة البرزخية، وهي حقيقة تمنح الرابطة بين المتوسِّل والمتوسَّل به معنىً أعمق.

فقد رسم ذات الحق الأقدس في الآية (١٠٥) من سورة التوبة المباركة نظام الشهود والإحاطة بأفعال البشر إذ يقول سبحانه: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهَ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾. وإنَّ استخدام الفعل المضارع ﴿**فَسَيَرَى**﴾ الدال على الاستمرار، يثبت أنَّ أعمال الأمة تُعرض دائماً في المحضر الملكوتي للنبي الأكرمﷺ والشهداء المصطفين من لدن الله (المؤمنون). وقد اعتبر مفسرو الفريقين في تبيين حقيقة هذه الرؤية أنَّها تتجاوز الرؤية المادية والشهود الدنيوي، مؤكدين على الإحاطة الروحية وعرض صحيفة الأعمال على الروح المطهرة للنبوة[1].

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ، ج٤، ص٢٠٦.

ومن المنظور الكلامي، فإنَّ الذوات المقدسة التي تشرف بإذن الله على دقيق سلوك الأمة وجليله بل وحتى نيَّاتها، هي أحق العباد بالوساطة والاستغفار؛ إذ إنَّ هذا الإشراف الوجودي يثبت لهم مقام «الشهادة على الأعمال»، كما ورد في الآية (٤١) من سورة النساء المباركة: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾. وفي واقع الأمر، يرتكز نظام التوسُّل على شفاعة ودعاء الذين يدبرون العوالم الباطنية للأمة بناءً على هذه الآيات، ويكونون بأمر الحق وسيلة للرقابة وإفاضة الرحمة في نشأة البرزخ والقيامة[1].

أم الإمامة والولاية التكوينية: غاية وسائط الفيض في القرآن:

إنَّ ذروة الاستدلال على ضرورة التوسُّل ومشروعيته في القرآن الكريم تكمن في تبيين مكانة «الإمامة» بوصفها عهداً إلهياً ومنصباً فوق بشري، يتخطى حدود الهداية التشريعية ليشمل الهداية التكوينية والوساطة في تدبير الأمور بإذن الله. يقول الله تعالى في الآية (١٢٤) من سورة البقرة المباركة، بعد الابتلاءات

(١) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج٩، ص٣٧٧.

الصعبة التي مرَّ بها الخليل إبراهيم عليه السلام، معرفاً مقام الإمامة بوصفه عطية أسمى من النبوة: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾. وهذا المقام الذي وُصف في ذيل الآية الشريفة بأنَّه «عهد الله»، هو مكانة يصبح صاحبها واسطة بين الخالق والمخلوق في إيصال الفيوضات المعنوية والهدايات الباطنية[1].

ومن هذا المنطلق، ربط القرآن الكريم في الآية (٧٣) من سورة الأنبياء المباركة فعل الإمام بأمر الله وإذنه حيث يقول: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾، فإنَّ قيد ﴿**بِأَمْرِنَا**﴾ يوضح أنَّ الإمام عامل بالأمر الملكوتي للحق سبحانه، وأنَّ التوسُّل به هو في الحقيقة تمسُّك بذاك الأمر والإرادة الإلهية المتجلية في وجوده المطهر. وقد رُسم هذا الارتباط التكويني في الآية (٧١) من سورة الإسراء المباركة على نحوٍ يربط المصير الأخروي لكل إنسان بمدى ارتباطه بإمامه: ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾، حيث صرَّح المفسرون في تبيين هذه الآية بأنَّ الإمام ليس قائداً دنيوياً فحسب، بل هو الشفيع والواسطة في بلاط الحق يوم

(١) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج١، ص٢٧٢.

المحشر، يقود أتباعه نحو غاية المقصد والكمال[1].

وبناءً على ذلك، فإنَّ نظام التوسُّل في الرؤية القرآنية ليس مجرد طلب بسيط، بل هو رجوع إلى أصل الولاية التي جعلها الله لهداية البشر والأخذ بأيديهم، كما قرن سبحانه في سورة النساء طاعة «أولي الأمر» بطاعته وطاعة الرسول صلى الله عليه وآله، لتكتمل بذلك دائرة وسائط الفيض في العصور كافة.

خلاصة: دراسة التوسُّل في مرآة الوحي:

إنَّ التأمُّل والتدبُّر في منظومة الآيات المدروسة في هذا الفصل، يبرهن على هذه الحقيقة البنيوية وهي أنَّ «التوسل» ليس بدعة كلامية، بل هو ظاهرة أصيلة ومتجذرة في عمق التشريع والتكوين القرآني. ويظهر التحليل المنهجي لآيات الوحي أنَّ بنية الاستدلال القرآني على مشروعية التوسُّل ترتكز على أربعة أركان رصينة:

أولاً: مشروعية أصل تكوين وسائط الفيض، والتي ثبتت بالأمر بابتغاء الوسيلة (سورة المائدة: الآية ٣٥) والتصريح

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ج٢١، ص٣٨٢.

بالاستغفار النبوي (سورة النساء: الآية ٦٤).

ثانياً: حاكمية الإذن الإلهي المدروسة (سورة البقرة: الآية ٢٥٥) والتي تشكل الحد الفاصل والقاطع بين التوحيد الخالص والشرك الجاهلي (سورة الزمر: الآية ٣).

ثالثاً: استمرار الحياة البرزخية وتجرُّد نفس أولياء الله (سورة آل عمران: الآية ١٦٩)، مما يبرهن على إمكانية الارتباط والسماع والتأثير للذوات المقدسة بعد رحيلها المادي.

رابعاً: المقام التكويني للإمامة ورقابتهم الملكوتية على أعمال الأمة (سورة التوبة: الآية ١٠٥)، مما يرقى بشأن وساطة الأولياء من مستوى التمسك البسيط إلى مرتبة الرابطة الوجودية والهداية الباطنية.

وبناءً على هذا الإحكام البنيوي، فإنَّ التوسُّل في منطق القرآن الكريم هو عين المحورية الإلهية والإنقياد لنظام الأسباب الذي أقرَّه ذات الحق الأقدس لتقرب العباد إليه.

الفصل الثالث: التوسُّل من منظور علم الكلام

١. رؤية المتكلمين (الشيعة وجمهور أهل السنة):

من وجهة نظر علماء الكلام، لا يتعارض التوسُّل مع «التوحيد في الربوبية والعبادة» فحسب، بل هو تأكيدٌ على القدرة الإلهية المطلقة؛ لأنَّ المتوسِّل لا يرى للواسطة أي استقلالٍ في التأثير.

التبرير الكلامي: فعل الواسطة (النبي أو الولي) هو مَجرىً للفيض الإلهي. فكما أنَّ الرزق يصل عبر الأسباب المادية في نظام التكوين، فإنَّ الفيض يصل عبر الوسائط المعنوية في نظام التشريع والمعنوية.

المستند القرآني: قوله تعالى في الآية ٣٥ من سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[1].

(١) ينظر: جعفر السبحاني: محاضرات في الإلهيات، تلخيص علي رباني كُلبايكاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ص٤٧٨-٤٨٠. (تبيين حقيقة التوسُّل والحد الفاصل بينه وبين الشرك). عبد الله الجوادي الآملي: أدب فناء المقربين، ج١،

النتيجة: التوسُّل في منظور الشيعة والفلسفة والعقل كالآتي:

- منظور العقل: إنَّ استخدام «الوسيلة» للوصول إلى الغاية قاعدةٌ عامة في نظام الكون، والتوسُّل هو استخدام الوسائط المعنوية لنيل الكمال.

- منظور الفلسفة الإسلامية: نظام الوجود ذو مراتب وتشكيك، والفيض الإلهي ينحدر من خلال «وسائط الفيض» (الموجودات الأشرف) إلى المرتبة الدانية (الإنسان).

- منظور الشيعة: التوسُّل هو الرجوع إلى «الوجهاء عند الله» (أهل البيت عليهم السلام) لطلب الشفاعة، وهذا الفعل هو عين التوحيد؛ لأنه يتم بامتثال أمر الله سبحانه.

الخلاصة: التوسُّل هو «إيجاد أقصر طريق آمن للوصول إلى الله، عبر المسار الذي حدده هو سبحانه وتعالى».

وجهة نظر الوهابية (السلفية الحديثة):

انتقد ابن تيمية وأتباعه التوسُّل بذوات الأشخاص أو بالأموات، واعتبروه قريباً من الشرك في العبادة.

مركز نشر إسراء، ص١١٤. (تبيين كلامي - عرفاني حول مكانة واسطة الفيض).

التبرير الكلامي: يعتقدون أنَّ الطلب من غير الله (حتى لو كان واسطة) يتعارض مع قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾. ويرون أنَّ التوسُّل الجائز يقتصر على: «دعاء الشخص الحي»، «أسماء الله»، و«العمل الصالح للإنسان نفسه».

النقد: يجيب متكلِّمو الشيعة والسنة بأنَّ الطلب من النبي صلى الله عليه وآله هو في الحقيقة طلبٌ من الله، وتكريمه إنَّما هو لأجل المكانة التي حباه الله بها، وليس بوصفه نِدّاً أو قطباً في مقابل الله[1].

الرد الكلامي على شبهة الشرك:

يرى المتكلمون كـ (العلامة الحلي والخواجة نصير الدين الطوسي) أنَّ الشرك إنَّما يتحقق عندما نقول بـ «الألوهية» أو «الربوبية المستقلة» لغير الله. أمَّا في التوسُّل، فإنَّ «المتوسَّل به» ليس إلَّا «شفيعاً» و«مقرَّباً» فحسب[2].

(١) ينظر: ابن تيمية: التوسُّل والوسيلة، تحقيق الألباني، ص٥٢. (حيث اعتبر التوسُّل بذات النبي بدعة). محمد بن عبد الوهاب: كشف الشبهات، ص١٢-١٥. (حول الحد الفاصل بين الشفاعة والشرك عند السلفية).

(٢) الحلي، الحسن بن يوسف: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تصحيح حسن زاده الآملي، مؤسسة النشر الإسلامي، ص٤٣٣. (مبحث الشفاعة ومكانة الأولياء).

النتيجة: تُعدُّ رؤية الوهابية والسلفية الحديثة للتوسل متضادة تماماً مع رؤية الشيعة والكلام التقليدي. ويمكن تلخيص آرائهم في النقاط التالية:

١. تعريف التوسُّل المشروع عندهم: يحصرون التوسُّل الجائز في ثلاثة موارد فقط:

(أ) التوسُّل بأسماء الله وصفاته.

(ب) التوسُّل بالأعمال الصالحة للشخص نفسه.

(ج) طلب الدعاء من الشخص الحيّ في حال حضوره.

٢. حكم التوسُّل بالأموات (الاستغاثة): تعتقد الوهابية أنَّ الطلب من النبي أو الأولياء بعد موتهم يُعد «شركاً أكبر» ومخرجاً من الملة، زاعمين أنَّ الميت (وإن كان نبياً) لا يملك القدرة على السماع أو الاستجابة.

٣. شبهة عبادة الأصنام: تدَّعي السلفية الحديثة أنَّ المتوسلين يفعلون تماماً ما كان يفعله مشركو الجاهلية الذين قالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾[1].

٤. الحد الفاصل بين التوحيد والشرك: التوحيد في هذا الفكر

(١) سورة الزمر، الآية ٣.

يعني إلغاء أي واسطة بين العبد وربِّه، فهم يفسِّرون أي نوع من الوساطة المعنوية على أنَّها «عبادة لغير الله».

الخلاصة النهائية: تعتبر الوهابية التوُّسل بالأرواح والأولياء شركاً في العبادة وبدعة، وتعتقد بوجوب التواصل مع الله دون التوسُّل بأيِّ إنسان (حياً كان أم ميتاً).

الفصل الرابع: أنواع التوسُّل من المنظور الكلامي

التوسُّل في علم الكلام هو جعلُ أمرٍ محبوبٍ وسيلةً بين يدي الله تعالى للوصول إلى المقصد. وقد قسّم المتكلمون التوسُّل إلى أنواع مختلفة بناءً على الأسس الوجودية (كحياة البرزخ) والمعرفية (كمكانة واسطة الفيض):

١. التوسُّل بذات ومقام أولياء الله (التوسُّل بالذوات): ويعني الإقسام على الله بمقام وحرمة ووجاهة الأنبياء والصالحين عنده.

التبيين الكلامي: يعتقد متكلمو الشيعة وأغلبية أهل السنة أنَّه بما أنَّ الله قد جعل لبعض عباده مقام «الوجاهة» (وجيهاً في الدنيا والآخرة)، فإنَّ التمسك بهذه الوجاهة هو عين التوحيد[1].

(١) ينظر: جعفر السبحاني: في ظلال التوحيد، نشر مشعر، ص٢٥٦-٢٥٨. (حيث نقد رؤية الوهابية وبيَّن المشروعية الكلامية للتوسل بالذوات المقدسة). تقي الدين الحصني الدمشقي: دفع الشبه عن الرسولﷺ، دار المصطفىﷺ، ص١٣١. (وهو من كبار الشافعية الذين يرون التوسُّل بذات النبي -حتى بعد وفاته- سيرةً مستمرة للمسلمين).

٢. التوسُّل بدعاء أولياء الله (التوسُّل بالدعاء): وهو أن يُطلب من وليٍّ الله أن يدعو للإنسان.

في حال الحياة: هناك اتفاق بين جميع الفرق الإسلامية على جوازه. أمَّا بعد الموت (الاستشفاع): يعتقد الشيعة والأشاعرة -بناءً على أصل «حياة البرزخ» - أنَّ أرواح الأولياء تسمع نداءنا ولها القدرة على الدعاء. أمَّا السلفية (أتباع ابن تيمية)، فيرون أنَّ الميت لا قدرة له على الدعاء، ويعتبرون هذا النوع من التوسُّل شركاً[١].

٣. التوسُّل بالأعمال الصالحة (التوسُّل بالأعمال): وهو جعل العمل العبادي الخالص (كصلاة، صيام، أو برِّ الوالدين) وسيلةً لاستجابة الدعاء.

التحليل الكلامي: يرى ابن تيمية أنَّ العمل الصالح صفة كمالية للنفس، وبما أنَّه مبعث رضا الحق، فهو يقرب إليه. ويعتبر هذا النوع هو التوسُّل المشروع والوحيد الذي لا إشكال فيه[٢].

(١) ينظر: عبد الله الجوادي الآملي: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (التوحيد في القرآن)، ج٢، ص٤٩٨.

(٢) ينظر: ابن تيمية: قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة، ص٧.

٤. التوسُّل بأسماء الله وصفاته (التوسُّل بالأسماء): دعاء الله تعالى من خلال أسمائه الحسنى (يا الله، يا رحيم).

التبيين الكلامي: تُعد هذه المرتبة أعلى مراتب التوسُّل حيث لا توجد فيها واسطة بشرية[١].

٥. التوسُّل بآثار الأولياء (التوسُّل بالآثار): وهو التبرك بالأشياء المنسوبة للأنبياء (كمثل قميص يوسف الذي ردَّ بصر يعقوب).

التبيين الكلامي: يعتقد متكلموا الشيعة أنَّه إذا كان الجماد (القميص) يصبح منشأً للأثر بسب نسبته لولي الله، فإنَّ الولي نفسه يملك الأثر المعنوي بطريق أولى[٢].

النتيجة: الفوارق الهيكلية في الرؤية الكلامية كالتالي:

ملاحظة كلامية جوهرية: إنَّ الحد الفاصل بين «التوسل» و«الشرك» يكمن في اعتقاد المتوسل، فما دام يعتقد بأنَّ القدرة

(١) ينظر: السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص٣٥٨ (ذيل الآية ١٨٠ من سورة الأعراف).

(٢) ينظر: محمد الريشهري: حيث تناول في بحوثه الآيات المتعلقة بالتبرك والتوسُّل بالآثار بالتفصيل.

مطلقة لله وحده، وأنَّ الواسطة إنَّما تتحرك بإذنه (الإذن التكويني والتشريعي)، فلا جُرم ولا شرك.

الرد الكلامي على شبهة الشرك: يرى متكلمون عظام كالعلامة الحلي والخواجة نصير الدين الطوسي أنَّ الشرك إنَّما يتحقق عندما نثبت لغير الله مقام «الألوهية» أو «الربوبية المستقلة». أمَّا في التوسُّل، فإنَّ المتوسَّل به ليس إلَّا «شفيعاً» و«مقرباً» فحسب[1].

(١) ينظر: الحلي، الحسن بن يوسف: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تصحيح حسن زاده الآملي، مؤسسة النشر الإسلامي، ص٤٣٣ (مبحث الشفاعة ومكانة الأولياء).

القسم الرابع:
الأدلة النقلية ومشروعية التوسُّل في الإسلام (الكتاب والسنة)

يُعدُّ التوسُّل بأسماء الله والقرآن الكريم من أرقى وأخلص أنواع التوسُّل في علم الكلام والأخلاق الإسلامية، ولا يوجد أدنى خلاف بين المذاهب الإسلامية في مشروعيته. وفي الواقع، هذا النوع هو الشكل الأكثر مباشرة للتقرب من الذات الإلهية.

الفصل الأول: التوسُّل بأسماء الله وصفاته

في علم الكلام، تُعتبر الأسماء الإلهية وسائط للفيض ومجاري لتجلي القدرة والرحمة الإلهية في العالم. ويرى المتكلمون أنَّ الدعاء مع ذكر الاسم الذي يتناسب مع الحاجة (مثل ذكر «يا رزاق» لطلب الرزق)، يزيد من سرعة الاستجابة.

المستند القرآني: قوله تعالى في الآية ١٨٠ من سورة الأعراف: **﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾**.

التبيين الكلامي: يبيِّن العلامة الطباطبائي في تفسيره أنَّ حقيقة أسماء الله هي وسائط تربط العبد بالذات الحقَّة، وأنَّ الدعاء لا يتيسر بدون هذه الوسائط[1].

كما يصرِّح ابن تيمية في كتابه (قاعدة جليلة) بأنَّ التوسُّل بصفات الله (كقدرته ورحمته) هو أفضل أنواع التوسُّل ومحل اتفاق السلف الصالح[2].

النتيجة: يُعدُّ التوسُّل بأسماء الله وصفاته أسمى أنواع التوسُّل وأكثرها إجماعاً بين جميع المذاهب الإسلامية.

المستند القرآني: وفقاً للآية ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾، أمر اللهُ عبادَه بأن يدعوه بأسمائه الحسنى.

فلسفة التوسل: بما أنَّ الله كمالٌ مطلق، فنحن ندعوه في كل حاجة بالصفة التي تناسبها؛ فالمغفرة تُطلب باسم «الغفور»، والرزق باسم «الرزاق». وبذلك يتحرر الإنسان بذكر صفات

(١) ينظر: السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص٣٥٨ (ذيل الآية ١٨٠ من سورة الأعراف).

(٢) ينظر: ابن تيمية: قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة، تحقيق زهير الشاويش، ص٧-٨.

الله من محدودياته ويتصل بمصدر القدرة والرحمة.

التوسُّل بالقرآن الكريم:

يُنظر إلى القرآن في علم الكلام على أنَّه «كلام الله» وتجلّيه للخلق. ويبيِّن المتكلمون التوسُّل بالقرآن بصورتين:

١. التوسُّل بالقرآن نفسه بوصفه كلاماً إلهياً.

٢. التوسُّل بحقيقة القرآن وحرمته.

المستند الروائي: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ**».

من منظور الشيعة: يذكر العلامة المجلسي روايات متعددة حول كيفية جعل القرآن واسطة لرفع الشدائد (كحديث الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا نزل بكم شدَّة فاستعينوا بالقرآن وتوسَّلوا به**»[1].

من منظور أهل السنة: يتناول السيوطي مكانة القرآن كوسيلة لاستجابة الدعاء والشفاء من الأمراض من منظار

(١) ينظر: العلاَّمة المجلسي: بحار الأنوار، ج٨٩، ص٨، باب «فضل القرآن والتوسُّل به»

كلامي وحديثي[1].

ملاحظة: في الأدعية المشهورة كدعاء «رفع المصاحف» في ليالي القدر، نحن نتوسل بالأسماء الإلهية (بك يا الله)، وبالقرآن الكريم (وبما فيه)، وبالذوات المقدسة (بمحمدٍ، بعليٍ...) في آنٍ واحد، مما يُظهر الترابط العميق بين هذه المراتب الثلاث من التوسُّل.

النتيجة: التوسُّل بالقرآن الكريم في علم الكلام والحديث يعني جعل كلام الرب واسطةً للتقرب من ذاته وطلب الحوائج. فالقرآن هو «تجلي الله لخلقه» و«حبل الله المتين»، لذا فإنَّ التمسك به هو تمسكٌ بصفة من صفات الفعل أو الذات الإلهية.

(١) ينظر: جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج٤، ص١٦٣.

الفصل الثاني: المصادر الكلامية والحديثية عند الشيعة

في مكتب التشيع، يُعدُّ القرآن الكريم إلى جانب العترة أحد «الثقلين» اللذين يمثِّل التمسك بهما سبباً للنجاة واستجابة الدعاء. وينقل العلامة المجلسي في هذا السياق روايات تصرح بمكانة يُشير القرآن الكريم بوصفه وسيلةً لاستجابة الدعاء إلى حقائق مذهلة، ومن ذلك ما روي عن النبي الأكرمﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ**»[1].

وفي كتاب «الكافي» الشريف للكليني، ذُكرت أحاديث تُبيّن أنَّ الأئمةعليهم السلام كانوا يتوسلون بالقرآن عند الشدائد أو بعد التلاوة. كما أشار الإمام السجادعليه السلام في الدعاء رقم (٢٤) من الصحيفة السجادية إلى هذه الحقيقة الكلامية[2].

(١) العلاَّمةالمجلسي: بحار الأنوار، ج٨٩، ص٨، الباب ١: «فضل القرآن والتوسُّل به».

(٢) الشيخ الكليني: أصول الكافي، ج٢، ص٦١٤، كتاب «فضل القرآن»، باب «الدعاء عند ختم القرآن».

وفي «الميزان في تفسير القرآن»، يُعرِّف العلامة الطباطبائي القرآن الكريم -في تبيينه لمعنى «الوسيلة»- كأحد أبرز مصاديق الوسيلة للتقرب إلى الله، وهو الواسطة في نظامي التكوين والتشريع[1].

النتيجة: في المصادر الحديثية الشيعية (كالكافي، والبحار، ومفاتيح الجنان)، لا يُقدَّم التوسُّل كاقتراحٍ فحسب، بل هو «الطريق الآمن الوحيد» للوصول إلى الله. ويمكن تلخيص ذلك في ثلاث نقاط:

أ- حق الشفاعة: تؤكِّد الأحاديث أنَّ الله منح المعصومين حق الشفاعة جزاءً لعبوديتهم، فالتوسُّل هو انتفاعٌ بهذا الحق الإلهي.

ب- شرط قبول العمل: وفقاً للروايات، الأئمة عليهم السلام هم «الوسيلة» والواسطة بين الخلق والخالق، والدعاء بدون ذكرهم يظلّ «محجوباً» ولا يصل إلى مرتبة الإجابة.

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص٢٨٢ (ذيل الآية ٣٥ من سورة المائدة: «وابتغوا إليه الوسيلة»).

ج- التوحيد في الدعاء: في أحاديث كـ «دعاء التوسل» و«الجامعة الكبيرة»، يقرّ المتوسل صراحةً بأنَّ القدرة المطلقة لله وحده، وأنّ الأولياء هم «الوجهاء» عنده سبحانه. فالتوسُّل في حديث الشيعة هو «طرقُ الباب الذي أمر الله بالدخول منه».

الفصل الثالث: مذاهب أهل السنة والجماعة

المصادر الكلامية والحديثية:

تذهب الأغلبية القاطعة من علماء أهل السنة والجماعة إلى جواز واستحباب التوسُّل بالقرآن؛ لكونه «كلام الله» وصفته. وفي كتاب «الإتقان في علوم القرآن»، فصَّل جلال الدين السيوطي القول في بركات التوسُّل بآيات القرآن لرفع الشدائد والأمراض، معتبراً ذلك سيرة السلف الصالح[1].

وحتى ابن تيمية، الذي يتشدد في أنواع أخرى من التوسُّل، يصرح في مؤلفاته بأنَّ التوسُّل بكلام الله (القرآن) وصفاته هو توسلٌ مشروع وتوحيدي، ولا منع فيه أبداً[2].

وينقل الإمام الترمذي في «سننه» روايةً عن النبي صلى الله عليه وآله مفادها:

(١) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج٤، ص١٦٣، النوع ٧٥: «في خواص القرآن».

(٢) ينظر: ابن تيمية: قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة، ص١٨ وص٢٢.

أنَّ مَن قرأ القرآن فليسأل الله به: «فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ»[1].

خلاصة الاستدلال الكلامي: يستند المتكلمون في مشروعية التوسُّل بالقرآن إلى دليلين عقلي ونقلي:

١. الحقيقة الكلامية للقرآن: القرآن كلام الله، وكلامه صفته، لذا فإنَّ التوسُّل بصفة الله هو في جوهره توسلٌ بذاته سبحانه.

٢. المكانة الهداية: القرآن «نور» و«هدى»، والتقرب من النور الإلهي يؤدِّي إلى تبديد ظلمات المشكلات وخرق الحجب بين العبد والخالق.

الخاتمة: تحليل العقل والإيمان في مرآة التوسل

إنَّ المراجعة العميقة لمفاهيم الفلسفة والكلام والتوسُّل بالأسماء والقرآن، تقودنا إلى نقطة محورية وهي أنَّ العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقةٌ مباشرة لكنها «منضبطة». ويمكن تلخيص نتائج هذا البحث في الثلاثية التالية:

١. التناغم بين نظامي التكوين والتشريع: من المنظور الفلسفي والكلامي، ثبت أنَّ نظام العالم قائمٌ على «الوسائط». فكما

(١) ينظر: سنن الترمذي، ج٥، ص١٦٠، الحديث ٢٩١٧.

يصل ضوء الشمس إلى الأرض عبر الغلاف الجوي في عالم الطبيعة، كذلك يفيض الفيض الإلهي في عالم المعنى على قلب العبد عبر وسائط كـ«القرآن الكريم» و«الأسماء الحسنى». بناءً عليه، فإنَّ التوسُّل لا يتعارض مع التوحيد، بل هو عين التسليم للسنّة الإلهية في تدبير الكون.

٢. الوظيفة المعرفية والتربوية للتوسل: التوسُّل بأسماء الله والتمسك بالقرآن ليس مجرد طلبٍ بسيط، بل هو «سلوكٌ معرفي». فعندما يدعو العبدُ ربه بأسماء مثل «يا رحيم» أو «يا حكيم»، فهو در حقيقة الأمر يقوم بمواءمة احتياجاته.

يتطابق الإنسان بذكر صفات الله مع صفات الحق تعالى الكمالية؛ وهذا العمل يرفع مستوى وعي الإنسان من المفاهيم الفلسفية التجريدية إلى مرتبة الشهود القلبي.

٣. التبرئة من الغلو والشرك: أظهر التحليل الكلامي أنَّه في حقيقة التوسُّل لا موضوعية لـ «الوسيلة» بذاتها، بل إنَّ تمام قيمتها وتأثيرها رهينٌ بإرادة الله وإذنه. فالقرآن والأسماء الإلهية هي مرايا تعكس نور الحق؛ لذا فإنَّ التوجه إلى المرآة هو في الحقيقة توجهٌ إلى صاحب النور.

النتيجة: التوسُّل هو ملتقى حاجة الإنسان وتجلِّي المحبوب. الفلسفة والكلام يعلماننا «لماذا» يجب أن نتوسل، والقرآن والأسماء الإلهية يعلماننا «كيف» نسلك هذا المسار. وفي نهاية المطاف، التوسُّل هو السبيل لعدم الضياع في وادي الأنانية، وإيجاد أقصر طريق في فضاء العبودية اللامتناهي.

الفصل الرابع: التوسُّل والسوابق التاريخية

التوسُّل في سيرة وسُنَّة الأنبياء الإلهيين:

التوسُّل بمعناه (جعل الإنسان ذو المقام الرفيع واسطةً عند الرب) هو سُنَّة عريقة بين الأنبياء وأتباع الأديان التوحيدية. وهذا الفعل لا يتنافى مع التوحيد فحسب، بل هو عين الأمر الإلهي لتكريم مقام العبودية.

١. التوسُّل بنبي الله يعقوب عليه السلام:

أبناء يعقوب عليهم السلام بعد ندمهم، جعلوا أباهم - وهو نبي الله - واسطةً لغفران ذنوبهم: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾[1].

ردُّ النبي عليه السلام: لم يقل لهم النبي يعقوب عليه السلام «اسألوا الله مباشرة وأنا لا شأن لي»، بل قال: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾[2] ويرى المفسرون (كالطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في

(١) سورة يوسف: الآية ٩٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٨.

التفسير الكبير) أنَّ هذه الآية هي أصرح دليل على جواز التوسُّل بأولياء الله في حياتهم.

٢. التوسُّل بنبي الله موسى عليه السلام:

كان بنو إسرائيل يتوسلون بمقام قُرب موسى عليه السلام عند وقوع الشدائد لدفع البلاء: ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ...**﴾[1] عبارة «بما عهد عندك» (أي بعهد الله ومكانتك لديه) تدلُّ بوضوح على أنَّهم توسلوا بـ «مكانة موسى ووجاهته عند الله».

٣. التوسُّل بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في القرآن:

لقد جعل اللهُ الحضورَ عند النبي صلى الله عليه وآله واستغفارَه شرطاً لقبول توبة بعض المذنبين: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾[2].

٤. التوسُّل بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المصادر الروائية (الفريقين):

وردت في الكتب المعتبرة لدى الشيعة والسنة أحاديث تثبت التوسُّل بشخص النبي صلى الله عليه وآله والأنبياء السابقين:

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٤.

التوسُّل بحق الأنبياء: دعا النبيﷺ عند دفن فاطمة بنت أسدعليها السلام قائلاً: «...**اغفِر لِأُمِّي فاطمة بنت أسد... بِحَقِّ نَبِيِّك وَالأَنبياءِ الَّذينَ مِن قَبلي**»[1].

حديث عثمان بن حنيف: علَّم النبيﷺ رجلاً ضريراً (أعمى) أن يدعو بهذا الدعاء: «**اللَّهم إنِّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة...**»[2].

٥. توسل النبي آدمعليه السلام بالكلمات (أهل البيت):

نقل كثير من المفسرين في ذيل الآية ٣٧ من سورة البقرة توسل آدمعليه السلام بأسماء صفوة خلق الله:

يقول القرآن: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...**﴾[3].

ذكر السيوطي في «الدر المنثور» عن ابن عباس: إنَّ الكلمات هي أسماء (محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين) حيث توسَّل

(١) انظر: الطبراني، المعجم الكبير، ج٢٤، ص٣٥١. وأبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٣، ص١٢١. الإردبيلي:، كشف الغمة، ج١، ص٤١٢.

(٢) سنن ابن ماجه: ج١، ص٤٤١ (الحديث ١٣٨٥). سنن الترمذي: ج٥، ص٥٦٩ (الحديث ٣٥٧٨) وصحَّحه بقوله: «حديث حسن صحيح».

(٣) سورة البقرة، الآية ٣٧.

آدم بهم فتاب الله عليه[1].

النتيجة: بناءً على المصادر القرآنية والوثائق التاريخية، نخلص إلى الآتي:

أولاً: أصل التوسل: مؤيَّد بصريح القرآن في سورة المائدة الآية ٣٥.

ثانياً: التوسُّل بالشخص: تدل عليه سيرة النبيَين يعقوب وموسى عليهما السلام.

ثالثاً: التوسُّل بالمقام: تثبته سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في توسله بحق الأنبياء السابقين. وقد أجمع كبار المفسرين على أنَّ «الوسيلة» في آية المائدة تشمل كل ما يقرب الإنسان إلى الله، فأيُّ وسيلةٍ أسمى من الأنبياء وهم أقرب العباد؟

مقدمة في مشروعية التوسُّل (المنظور العلمي والتاريخي):

إنَّ الدخولَ في بحثِ جوازِ التوسلِ في السيرةِ النبويةِ وسيرةِ أهلِ البيتِ عليهم السلام من مَنظورٍ علميٍ وتاريخي، يَتطلبُ تبييناً دقيقاً

(١) السيوطي: الدر المنثور، ج١، ص٦٠.

لمفهومِ «الوسيلة» واستقراءً للأنماطِ السلوكيةِ لقادةِ الدِّين. وقد صِيغَت هذهِ المقدمةُ بالتركيزِ على الشواهدِ المتقنةِ والمباني الكلاميةِ الرصينة.

الوسيلةُ في مَنظورِ الشريعةِ ليستْ مجردَ لفظٍ عابر، بل هي المِعراجُ الذي يربطُ الخَلْقَ بالخالقِ بإذنهِ سبحانه. ومِن خلالِ تَتَبُّعِ السيرةِ القطعية، نجدُ أنَّ التوسلَ كانَ ممارسةً مَنهجيةً لدى الصَّحابةِ والتابعينَ بتوجيهٍ من المعصوم، مما يَنفي عنها صبغةَ الابتداعِ ويُلحقُها بأصلِ التوحيدِ القائمِ على نظامِ الأسبابِ والمسبباتِ الروحية.

الفصل الخامس: مشروعية التوسُّل في ضوء السُنَّة والسيرة وكلام أهل البيت عليهم السلام

إنَّ الدخول في بحث جواز التوسُّل في السيرة النبوية وسيرة أهل البيت عليهم السلام من منظور علمي وتاريخي، يتطلب تبييناً دقيقاً لمفهوم «الوسيلة» واستقراءً للأنماط السلوكية لقادة الدين. وقد صِيغت هذه المقدمة بالتركيز على الشواهد المتقنة والمباني الكلامية؛ فأساساً، في المنظومة المعرفية الإسلامية، تُعدّ العلاقة بين العبد والخالق مساراً ممتزجاً بين «المناجاة المباشرة» و«الاستمداد من وسائط الفيض». إنَّ البحث في جواز التوسُّل يتجاوز كونه ميلاً عاطفياً، ليضرب بجذوره في الأسس العقلانية والمستندات التاريخية لصدر الإسلام.

١. تبيين مفهوم «السيرة» بوصفها حجة شرعية:

في منهجية العلوم الإسلامية، تُعدُّ «السيرة» (قول المعصوم، وفعله، وتقريره) أحد المصادر الرئيسة لاستنباط الأحكام

والعقائد. ويُظهر استقراء تاريخ حياة النبي الأكرمﷺ والأئمة الأطهارعليهم السلام أنَّ التوسُّل ليس ظاهرةً مُستحدثة (بدعة)، بل هو سُنَّة جارية في سلوك الصحابة والتابعين، تشكَّلت تحت إشراف وتأييد الوحي.

٢. التوسُّل في العهد النبوي: من الحياة إلى الممات:

خلافاً لبعض التصورات الكلامية التي تحصر التوسُّل بزمن الحضور الفيزيائي، تشهد السيرة النبوية بأنَّ الصحابة الكرام جعلوا ذات النبيﷺ ومقامه واسطةً بوصفه «وجيهاً عند الله». إنَّ التقارير التاريخية المتواترة في مصادر الفريقين (الشيعة والسنة) حول الاستسقاء بالنبيﷺ أو بعمه العباس بن عبد المطلب، تدلّ على أصالة هذا الفكر في صدر الإسلام.

٣. أهل البيتعليهم السلام واستمرارية خط الوساطة في الفيض:

في مدرسة أهل البيتعليهم السلام، يُعتبر التوسُّل تجلياً للتوحيد. فقد عرَّف الأئمةعليهم السلام أنفسهم في أدعيتهم وبياناتهم (كدعاء التوسُّل أو الزيارة الجامعة الكبيرة) بأنَّهم «أبواب الله» التي منها يُؤتى. ومن المنظور العلمي، تعود هذه المكانة إلى طهارتهم الباطنية

وعصمتهم، مما جعلهم المجرى الأتمَّ لتجلي الصفات الإلهية.

٤. الأسس القرآنية لسيرة المعصومين:

إنَّ مشروعية التوسُّل في السيرة النبوية تقوم على أصلٍ مفاده أنَّ «المُتوسَّل به»... إنَّ السيرةَ العمليةَ لأهلِ البيتِ عليهم السلام هي في الواقعِ تفسيرٌ عيانيٌ للآيةِ الشريفةِ: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[1] ومِن مَنظورٍ علمي؛ فإنَّ «الوسيلةَ» في هذهِ الآيةِ وفي سيرةِ المعصومينَ عليهم السلام هي كلُّ ما يُؤدِّي إلى قُربِ العبدِ بإذنِ الله؛ سواءً كانَ هذا المَسلَكُ عملاً صالحاً، أو دعاءَ النبي، أو الإقسامَ على اللهِ بمقامِ أوليائهِ.

وتقومُ مشروعيةُ التوسلِ في السيرةِ النبويةِ على هذا الأصل، وهو أنَّ «المُتوسَّلَ بهِ»:

التوسُّل بمقام الصالحين: لقد ثَبَتَ في السنَّةِ النبويةِ التوسلُ بمقامِ الصالحينَ (كتوسلِ عمرَ بنِ الخطابِ بالعباسِ عمِّ النبي صلى الله عليه وآله) لطلبِ السُّقيا، مما يُشيرُ إلى أنَّ اتخاذَ الأشخاصِ ذوي الوجاهةِ والقدرِ عندَ اللهِ وسائطَ، هو أمرٌ تضربُ جذورُه في

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.

صَدرِ الإسلام.

الخلاصة: التوسلُ في السنَّةِ النبويةِ هو «الاستفادةُ من مقامِ ودعاءِ الإنسانِ الكاملِ للتقربِ إلى الله»، وهذا مَنهجٌ عَلَّمَهُ النبيُّ ﷺ للمسلمينَ ليكونَ طريقُ استجابةِ الدعاءِ أكثرَ يُسراً وضماناً.

الفصل السادس:
رؤية الأئمة الأربعة وكبار علماء أهل السنة

١. الإمام مالك بن أنس (إمام المذهب المالكي):

في سياق الحوار الذي دار بين الإمام مالك والمنصور الدوانيقي (الخليفة العباسي) في المسجد النبوي، نصح الإمامُ مالك الخليفةَ أن يستقبل قبر النبي ﷺ عند الدعاء وأن يتوسل به شفيعاً. تُعدُّ هذه المناظرة أو المحاورة بين الإمام مالك بن أنس والمنصور الدوانيقي واحدة من أهم الاستدلالات الكلامية المحورية في إثبات مشروعية التوسُّل والاستشفاع من وجهة نظر أهل السنة. حينما قدم المنصور الدوانيقي إلى المدينة المنورة لزيارة قبر النبي ﷺ، التقى بالإمام مالك في المسجد النبوي، ودار بينهما حوار حول آداب الدعاء والزيارة. سأل المنصورُ الإمامَ مالكاً قائلاً: «يا أبا عبد الله، أستقبلُ القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فأجابه الإمام مالك: ولِمَ تصرفُ وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟

بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله فيك، هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله، بل استقبله واجعله شفيعاً». ثم استشهد الإمام مالك بهذه الآية الكريمة: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا**﴾[1].

لقد ذُكرت هذه الواقعة في الكثير من الكتب المعتبرة في التاريخ والفقه والكلام عند أهل السنة، ومنها ما ذكره العلماء المالكية كالقاضي عياض المالكي في كتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وآله). ويُعتبر هذا الكتاب أوثق مصدر نقل هذه الواقعة بسندها، واعتمد عليه الكثير من العلماء اللاحقين[2].

كما أورد السمهودي، المؤرخ والمحدث الشافعي الكبير، هذه الواقعة في كتابه (وفاء الوفا) في باب «التوسُّل والاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وآله» وأكَّد صحتها[3].

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٢) انظر: القاضي عياض المالكي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وآله، ج٢، ص٥٩٦، طبعة دار الفكر - بيروت، أو ص٤١ (طبعة دمشق).

(٣) نور الدين السمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص١٢٣، طبعة دار الكتب العلمية.

وكذلك ذكر شهاب الدين القسطلاني (شارح صحيح البخاري) هذه الواقعة كشاهدٍ على سيرة أئمة السلف في التوسُّل بالنبي صلى الله عليه وآله[1].

تكمن أهمية هذا الحوار من ثلاثة جوانب كلامية:

١. **إثبات التوسُّل بالذات:** حيث سمَّى الإمام مالك النبيَّ صلى الله عليه وآله صراحةً بـ «الوسيلة».

٢. **عمومية التوسل:** إشارة الإمام مالك إلى النبي آدم عليه السلام تُظهر أنَّ التوسُّل كان سنةً قائمة منذ خلق البشرية.

٣. **الاستمرار بعد الوفاة:** وقع هذا الحوار بعد قرون من رحيل النبي صلى الله عليه وآله، مما يدلُّ على اعتقاد الإمام مالك بالحياة البرزخية وقدرة النبي صلى الله عليه وآله على الشفاعة.

٢. الإمام الشافعي (إمام المذهب الشافعي):

لم يكتفِ الإمام الشافعي بجواز التوسُّل فحسب، بل كان يتوسَّل بأهل البيت عليهم السلام في شعره وسيرته. نقل ابن حجر عن الإمام الشافعي قوله:

(١) شهاب الدين القسطلاني: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ج٤، ص٥٨٠.

«آلُ النَّبِيِّ ذَرِيعَتِي
هُمْ إِلَيْهِ وَسِيلَتِي
أَرْجُو بِهِمْ بِمُحَمَّدٍ
أُعْطَى صَحِيفَتِي بَيَمِينِي»[1]

كما نُقل عن الإمام الشافعي أنَّه كان إذا كانت له حاجة، ذهب إلى ضريح الإمام أبي حنيفة وتوسَّل به[2].

٣. الإمام أحمد بن حنبل (إمام المذهب الحنبلي):

على عكس ما نسبته السلفية لاحقاً إلى أحمد بن حنبل، فقد كان يرى جواز التوسُّل بالنبيﷺ في الدعاء. جاء في المصادر الحنبلية: «يجوز التوسُّل بالرجل الصالح... وقيل يُستحب، وقال إمامنا [أحمد بن حنبل] في منسكه الذي كتبه للمروذي: إنَّه يتوسل بالنبيﷺ في دعائه»[3].

٤. الإمام أبو حنيفة والمذهب الحنفي:

رغم ذِكر «كراهة» تعبير «بحق فلان» في بعض الكتب

(١) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة، ص١٨٠، طبعة مكتبة القاهرة.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج١، ص١٢٣.
(٣) علاء الدين المرداوي: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، ج٢، ص٤٥٦.

الحنفية، إلَّا أنَّ التوسُّل كان جائزاً دائماً في مقام العمل وعند كبار علماء هذا المذهب. وقد ذكر ابن عابدين في كتابه - ضمن شرح آداب الزيارة - التوسُّلَ بالنبيﷺ وطلبَ الشفاعة منه كسنةٍ مستمرة[1].

٥. رؤية سائر كبار علماء ومتكلمي أهل السنة:

- الإمام النووي (شارح صحيح مسلم): في كتابه «الأذكار» (ص ٣٠٦)، وضمن آداب الزيارة، ينصُّ صراحةً على أنَّه ينبغي للزائر أن يتوسل بالنبيﷺ ويستشفع به إلى ربِّه.

- السمهودي (مؤرخ المدينة الكبير): أفرد في كتابه «وفاء الوفاء» (ج ٤، ص١٣٧١) فصلاً بعنوان «التوسُّل والاستشفاع بالنبيﷺ»، واعتبر ذلك سيرةً قطعية للمسلمين.

- الشوكاني: يذكر في كتابه «تحفة الذاكرين» (ص١٦١): «التوسُّل بالنبيﷺ وبالصالحين حقيقةٌ ثابتة في الروايات الصحيحة».

- توسل النبيﷺ بحقه وبحق الأنبياء من قبله: عند دفن

(١) ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار، ج٦، ص٣٩٧.

فاطمة بنت أسد (والدة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام)، دعا النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «**اغفر لأمّي فاطمة بنت أسد... بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي**»[1].

الخلاصة: في فقه وكلام الأئمة الأربعة (أبو حنيفة، مالك، الشافعي، وأحمد بن حنبل)، يُعتبر أصل التوسُّل بالنبي صلى الله عليه وآله والصالحين أمراً جائزاً ومستحسناً، وملخصه كالتالي:

أ. الإمام أبو حنيفة: رغم احترازه في بعض التفاصيل اللفظية، إلَّا أنَّ أتباعه (الحنفية) يرون التوسُّل بمقام وبركة النبي والأولياء سنةً قائمة.

ب. الإمام مالك: أكَّد في مناظرته مع المنصور العباسي أنَّ النبي صلى الله عليه وآله هو «وسيلته ووسيلة أبيه آدم عليه السلام» إلى الله، وأنَّه ينبغي استقبال القبر الشريف عند الدعاء.

ج. الإمام الشافعي: ورد صراحةً توسله بأهل البيت عليهم السلام (مثل الإمام موسى الكاظم عليه السلام) لقضاء حوائجه، واصفاً إياهم

(١) انظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج٢٤، ص٣٥١. ابن حجر الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٩، ص٢٥٧. العلَّامة المجلسي: بحار الأنوار، ج٩١، ص٢١.

بوسيلته إلى الله.

د. الإمام أحمد بن حنبل: في أوثق النقول عنه، أجاز التوسُّل بالنبي ﷺ في الدعاء، وندب إليه لطلب الغيث وكشف الكروب.

بناءً على ذلك، فإنَّ التوسُّل في نظر الأئمة الأربعة ليس شركاً ولا بدعة، بل هو سنة نبوية لطلب البركة وتعظيم شعائر الله، مما أجمع عليه عموم المسلمين.

الفصل السابع:
جواز التوسُّل في كلام وسيرة أهل البيت عليهم السلام

إنَّ التوسُّل في مرآة كلام وسيرة أهل البيت عليهم السلام ليس خروجاً عن التوحيد، بل هو أدق المسارات لنيل حقيقة التوحيد. لقد علمونا أنَّ الله الرحمن بنى العالم على نظام «الأسباب والمسببات»؛ فكما جعل الشمس والمطر واسطةً لحياة الأبدان، جعل «وسائل» من جنس النور لحياة الأرواح والتقرب إلى حضرته القدسية.

إنَّ التوسُّل في كلامهم المعرفي والنوراني هو رَبْطُ أيدي العبد الخالية بأذيال أولئك الذين هم «وجهاء عند الله»، وهم وسائط الفيض بين الخالق والخلق. وقد بَيَّنت الصديقة الطاهرة عليها السلام فلسفة هذا الارتباط في فرازٍ سامٍ من خطبتها الفدكية قائلةً:

«**وَنَحْنُ وَسِيلَتُهُ فِي خَلْقِهِ...**»[1].

لقد علَّمنا أهل البيت عليهم السلام أنَّه في خضمِّ تلاطم الحياة القاسية،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٦، ص٢١١.

لا ينبغي للمرء أن يتَّكل على قدرته المحدودة فحسب؛ فإنَّ لبحر الرحمة الإلهية ساحلاً مفتاحه بأيدي الأطهار. وفي نصيحةٍ منجية للحظات الاضطرار، يقول الإمام الرضا عليه السلام:

«إِذَا نَزَلَتْ بِكُمْ شِدَّةٌ فَاسْتَعِينُوا بِنَا عَلَى اللهِ»[1].

إنَّ هذه الوصية هي دعوةٌ لضيافةٍ قدسية، حيث يُقسِم العبدُ على الله بأحبِّ خلقه إليه، ليزيح غبار الخطيئة وحجاب الحاجة بجاه أولياء الله. ففي رؤية الأئمة عليهم السلام، التوسُّل هو اعترافٌ بهذه الحقيقة: **«مَنْ أَرَادَ اللهَ بَدَأَ بِكُمْ»**.

التوسُّل هو مشهدٌ لكرامة الله تتجلى في عبودية المعصومين الكاملة. نحن نَقصدُ أبوابهم ليس لأننا نراهم آلهةً - حاشا لله - بل لأننا وجدناهم «أخلص عباد الله»، الذين لا يُردُّ دعاؤهم، ونظرتهم هي الكيمياء التي تُحيلُ مسَّ وجودنا ذهباً.

من وحي المناجاة:

«إلهي! بحق تلك «الوسائل» التي اخترتَها بنفسك للعبور من الظلمات، وبحرمة تلك الأسماء التي يتردد صداها في العرش،

(١) العلَّامة المجلسي: بحار الأنوار، ج٩١، ص٥.

ثبّتنا في كنف سيرة أهل البيت عليهم السلام ونصرتهم».

إنَّ أهل البيت عليهم السلام، بصفتهم المبيّنين الحقيقيين للوحي، قد جسَّدوا حقيقة التوسُّل في أدعيتهم وبياناتهم، حيث طُرح التوسُّل في مدرستهم الكلامية باعتباره «الطريق الآمن الوحيد للوصول إلى الله»، فالأئمة ليسوا شفعاء فحسب، بل هم «الوسائل الإلهية» لتقرُّب العبد من خالقه.

١. التوسُّل في كلام السيدة الزهراء عليها السلام:

بيَّنت السيدة الزهراء عليها السلام في خطبتها «الفدكية» الشهيرة مقام أهل البيت عليهم السلام بوصفهم وسيلة التقرب الإلهي، مؤكدةً على دورهم المحوري في ربط الخلق بالخالق:

«وَاَحمَـدُوا الَّـذي لِعَظَمَتِهِ وَنُـورِهِ يَبتَغي مَن فِي السَّمواتِ وَالاَرضِ إِلَيهِ الوَسيلَةَ وَنَحنُ وَسيلَتُهُ في خَلقِهِ...»[1].

٢. التوسُّل في كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام:

أشار عليه السلام في نهج البلاغة - ضمن تعداده لأنواع التوسُّل -

(١) انظر: ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢١١، طبعة دار إحياء الكتب العربية. أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج، ج١، ص٩٧، طبعة منشورات المرتضى.

إلى دور النبيﷺ بوصفه الواسطة الرئيسية للفيض. ففي الخطبة (١١٠) من نهج البلاغة، يعُدُّ «الإيمان»، و«الصلاة»، و«الزكاة»، و«الحج» من وسائل التوسُّل، بينما يصف في مواضع أخرى النبيَّ ﷺ بأنَّه وسيلة النجاة[١].

٣. التوسُّل في أدعية الإمام السجاد عليه السلام:

تزخر الصحيفة السجادية، المعروفة بـ «زبور آل محمد»، بالمفاهيم الكلامية للتوسل. النص: «...**وَجَعَلْتَهُمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْك، وَالْمَسْلَك إِلَى جَنَّتِك**»[٢].

٤. التوسُّل في كلام الإمام الصادق عليه السلام:

فَسَّرَ عليه السلام في روايةٍ حقيقة الآية (٣٥) من سورة المائدة ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ بقوله: «**نَحنُ الوَسيلَةُ إلى اللهِ**»[٣].

٥. التوسُّل في كلام الإمام الرضا عليه السلام:

قَدَّم الإمام الرضا عليه السلام منهجاً عملياً للتوسل عند الشدائد،

(١) السيد الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١١٠ (وفي بعض النسخ ١٠٩)، ص١٦٣ (ترجمة دشتي).

(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧ (دعاء يوم عرفة)، ص٢٠٢ (طبعة الهادي).

(٣) محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٤، ص٨٤، الباب ١١ (تفسير آية الوسيلة).

حيث قال: «**إِذَا نَزَلَتْ بِكُمْ شِدَّةٌ فَاسْتَعِينُوا بِنَا عَلَى اللهِ**»[1].

٦. الزيارة الجامعة الكبيرة (دائرة معارف التوسل):

تُعدُّ هذه الزيارة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام أصرح نصٍّ كلامي في باب التوسُّل واستشفاع الخلق بالأئمة الأطهار عليهم السلام.

تُعتبر «الزيارة الجامعة الكبيرة» و«دعاء التوسل» أهم المصادر الكلامية لدى الشيعة في باب التوسُّل، حيث يبيِّنان مفاهيم عميقة حول الوساطة المعنوية.

دعاء التوسل: هذا الدعاء المنقول وفقاً لروايات المعصومين، هو المصداق الأبرز للتوسل بالذوات المقدسة[2].

الزيارة الجامعة الكبيرة: «**مَنْ أَرَادَ اللهَ بَدَأَ بِكُمْ... وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ**» (أيْ: أنَّ من أراد الوصول إلى الله بدأ بطاعتكم، ومن قصده توجه بوسيلتكم)[3].

(١) محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٩١، ص٥.
(٢) محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٩٩، ص٢٤٧، الباب ٩.
(٣) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١٥.

الخلاصة الكلامية (وفق السيرة النبوية وسيرة أهل البيت عليهم السلام):

١. التوسُّل ليس اعتقاداً بالاستقلال في التأثير لغير الله (نفي الشرك).

٢. التوسُّل هو تكريمٌ لمقام عبودية الأولياء (إثبات المنزلة).

٣. اتخاذ النبي والولي واسطة هو في حقيقته احترامٌ للإذن الإلهي.

الخاتمة: التوسُّل سنة نبوية وسيرة مستمرة للمعصومين عليهم السلام، إنَّ الدراسة الدقيقة والعلمية للشواهد التاريخية والروائية في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة، تقودنا إلى النتائج الاستراتيجية التالية حول «جواز وفضل التوسل»:

أ- **الأصالة التاريخية والجذور الراسخة في صدر الإسلام**: النتيجة الأولى هي أنَّ التوسُّل ليس «ابتداعاً» أو «بدعة» ظهرت في العصور المتأخرة. إنَّ السيرة العملية للصحابة في حضور النبي صلى الله عليه وآله واستمدادهم به لطلب الغيث، وشفاء الأمراض، وطلب المغفرة، تثبت أنَّ التوسُّل بذات ومقام أولياء الله كان جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية الأصيلة في عصر الوحي.

ب- **التوسُّل بوصفه «تعظيماً لشعائر الله»**: يُستنبط من سيرة

أهل البيت عليهم السلام أنَّ التوسُّل هو تكريمٌ لمقام الإنسان الكامل الذي جعله الله مجرىً لفيضه. وفي الواقع، فإنَّ التوسُّل بالنبي وأهل بيته عليهم السلام هو نوعٌ من الإقرار بنظام الرتب والكمال في الخلق، أي: أنَّ العبد يوقن بأنَّه للوصول إلى القمة، لا بدَّ من الاستعانة بالمرشدين والوسائط الذين اصطفاهم الله عزَّ وجلَّ.

ج- **التفريق الدقيق بين «الوسيلة» و«المؤثر الحقيقي»**: إنَّ أهم إنجازات سيرة المعصومين في باب التوسُّل هو تعليم الحد الفاصل بين التوحيد والشرك. ففي جميع الأدعية المأثورة (كدعاء التوسل)، يظل المخاطب الأصلي هو «الله»، ويُدعى المعصومون بوصفهم «شفعاء». وتُظهر هذه السيرة أنَّ التوسُّل لا يشمُّ منه رائحة الشرك، بل هو معزز للتوحيد؛ لأنَّ المتوسل يعتقد أنَّ أولياء الله لا يملكون شيئاً إلَّا من عند الله وبإذنه.

د- **استمرار الشفاعة بعد الرحيل**: إنَّ سيرة أهل البيت عليهم السلام في زيارة القبور المطهرة ومخاطبة الأرواح الطيبة، تضع حداً للفكر القائل بأنَّ الرابطة بين الخلق وصفوة الله تنقطع بالموت. فمن منظور السيرة، النبي والأئمة «**أحياءٌ عند ربهم**»، ويمتلكون

القدرة على الدعاء والاستغفار لأتباعهم في عالم البرزخ أيضاً.

النتيجة: إنَّ التوسُّل في السيرة النبوية وسيرة أهل البيت عليهم السلام ليس طريقاً منحرفاً، بل هو «الطريق الأسمى» للتقرب. تعلمنا هذه السيرة أنَّه لاستجلاب الرحمة الإلهية، يجب التمسك بـ «الحبال المتينة»، وعلى رأسها النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام. وهذا السلوك هو التبلور العيني للرابطة بين حاجة المخلوق وعظمة الخالق عبر مسار صَفْوتهِ.

القسم الخامس:

نقد الشبهات والحدود الاعتقادية

الفصل الأول: الحدُّ الفاصل بين التوسُّل والشرك

إنَّ تشخيص الحدود الفاصلة بين التوسُّل والشرك في التعاليم الإسلامية يُعدُّ من أدق المباحث الكلامية. ولفهم هذا الحد، يجب أوَّلاً إعادة قراءة التعريفات الدقيقة لـ «العبادة» و«التوحيد» من منظار الكتاب والسنة.

إنَّ ما أدَّى إلى خلط الأمور وانحراف معارضي التوسُّل بأولياء الله هو وقوفهم عند فهم معاني «الدعاء» و«العبادة» دون غوص؛ لذا سنبيِّن الحدود الفاصلة بينهما استناداً إلى المصادر المعتبرة:

١. التعريف المعياري:

الفرق بين «الدعاء» و«العبادة» نقطة الخلاف الجوهرية تكمن في تعريف كلمة «الدعاء» في الآيات القرآنية. يرى معارضو التوسُّل أنَّ كل نداء لغير الله هو عبادة، بينما يرى المحققون الإسلاميون أنَّ الحد الفاصل يكمن في «الاعتقاد بالربوبية».

معيار الشرك: إذا دعا أحدٌ غير الله معتقداً بأنَّه قادراً «مستقلاً» على قضاء الحاجة، أو أنَّه شريك لله في تدبير العالم، فهذا هو الشرك بعينه.

ملاك التوسل: إذا دعا أحدٌ وليَّ الله وهو يعلم أنَّه مجرَّد «واسطة» و«وجيه» في البلاط الإلهي، وأنَّ قدرته مستمدة من قدرة الله وفانية فيها، فهذا هو عين التوحيد[1].

٢. الحدود الواضحة بين التوسُّل المشروع والشرك:

لمزيد من الوضوح، يمكن تلخيص الفوارق والحدود على النحو التالي:

(١) انظر: العلَّامة السيد محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٥، ص٢٨٢ (ذيل الآية ٦٤ من سورة النساء). الآلوسي، روح المعاني، ج٦، ص١٢٨.

أ- إذا افترض العبدُ أنَّ القدرة ذاتية ومستقلة لولي الله: فهذا استغاثة شركية (شرك).

ب- إذا اعتقد أنَّ القدرة هبةٌ وإذنٌ إلهي: فهذا (توسل وتوحيد).

ج- إذا جعل الوليَّ هدفاً في الدعاء مستقلاً عن الله: فهذا استغاثة شركية (شرك).

د- إذا كان الله هو الهدف الأصلي والوليُّ واسطةً إليه: فهذا (توسل وتوحيد).

هـ- إذا كان المتوسِّل يرى النبيﷺ والأولياء «عباداً» لله ووسائط للفيض: فهذا (عين التوحيد).

و- المشركون كانوا يعتقدون أنَّ الأصنام (أرباب): ويطلبون الحوائج منها مباشرة، فهذا (شرك).

٣. نقد سحب حُكم عبَّاد الأصنام على المسلمين:

تستند التيارات المتطرفة إلى الآية الكريمة: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾[1] للحكم على التوسُّل بأنَّه شرك.

(١) سورة الزمر: الآية ٣.

الرد العلمي والحد الدقيق: الكلمة المفتاحية في هذه الآية هي ﴿**نَعْبُدُهُمْ**﴾. فالمشركون كانوا يرون الأصنام «أرباباً صغيرين» (أرباباً من دون الله) يُعتقد أنَّ جزءاً من تدبير الكون قد فُوِّض إليهم. في المقابل، فإنَّ المسلم المتوسِّل يرى النبيﷺ «عبد الله»، ولا يملك لنفسه استقلالاً عن إرادة الله[1].

٤. سيرة الصحابة، ميزان تشخيص الحدود:

تُعدُّ سيرة الصحابة خير دليل على أنَّ الطلب من غير الله (باعتباره واسطة) ليس شركاً:

التوسُّل بدعاء النبيﷺ: جاء في صحيح البخاري أنَّ أعرابياً دخل والرسولﷺ يخطب، فقال: «يا رسول الله، هلكت الأموال... فادعُ الله يغيثنا». فدعا النبيﷺ فنزل المطر. فلو كان نداء غير الله لطلب الحاجة شركاً، لكان لزاماً على النبيﷺ نهيه وزجره[2].

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٣٢٧. السيد محسن أمين: كشف الارتياب، ص١٨٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاستسقاء، حديث ١٠١٣.

التوسُّل بالمقام بعد الوفاة: أوصى عثمان بن حنيف رجلاً كانت له حاجة أن يتوضأ ويتوسل بالنبي ﷺ (وقد كان ذلك بعد رحيل النبي ﷺ)[1].

٥. الخلاصة: أين يقع الحد النهائي؟

إنَّ الحد القطعي الفاصل بين التوسُّل والشرك هو «الاعتقاد باستقلال الواسطة»:

أ. إذا قلنا: «يا رسول الله، اغفر لي ذنبي مستقلاً»، فهذا شرك (لأنَّ مغفرة الذنوب شأنٌ إلهي).

ب. إذا قلنا: «يا رسول الله، وأنت الوجيه عند الله، اسأل الله أن يغفر لي»، فهذا توسل وعين التوحيد.

النتيجة: الحد الفاصل بين التوحيد والأدب في ميزان المعرفة الإسلامية، ليس التوسُّل مساواةً بالخالق، بل هو اعترافٌ بعظمته؛ لأنَّ المؤمن باتخاذه أولياء الله وسائط، إنَّما يتمسك بـ «جاهِ عبوديتهم» عند ربِّهم. يتلخص الحد الدقيق بين التوحيد والشرك في كلمة واحدة: «الاستقلال». فمن اعتقد أنَّ الواسطة

(١) الطبراني: المعجم الكبير، ج٩، ص٣١.

«منشأ مستقل للقدرة» فقد سلك جادة الشرك، أمَّا من رآه «مجراً للفيض الإلهي» وعبداً مأذوناً له، فقد أدرك حقيقة التوحيد.

إنَّ التوسُّل في واقعه هو «أدب الحضور» بين يدي الله، تماماً كما يُستعان بخواص الملك ومعتمديه لدخول ضيافته وتسهيل القبول لديه.

الفصل الثاني:
خمس شبهات أساسية للوهابية
حول التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام

يُعد الاعتقاد بالتوسُّل أحد نقاط التمايز الرئيسية بين الفكر الشيعي والمدرسة الوهابية. فالوهابيون، باعتمادهم على ظواهر بعض الآيات، يعدون التوسُّل مصداقاً للشرك، في حين يراه علماء الشيعة – استناداً للكتاب والسنة – عين التوحيد. فيما يلي نورد خمس شبهات أساسية للوهابية مع ردود مستندة ومنطقية:

١. الشبهة الأولى: التوسُّل شركٌ في العبادة:

شبهة الوهابية: يعتقد الوهابيون أنَّ طلب الحاجة من غير الله (حتى من النبي صلى الله عليه وآله) يُعد عبادةً لذلك الشخص، وطبقاً لقوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، فإنَّ العبادة محصورة بالله وحده.

ردُّ الشيعة: العبادة هي الخضوع المصحوب بالاعتقاد بـ

«ربوبية» أو «ألوهية» الطرف الآخر. وحين يرى المتوسلُ أهلَ البيت عليهم السلام عباداً لله ووسائط وجيهة، فإنَّ فعله هذا ليس شركاً، بل هو تعظيم لشعائر الله. يقول القرآن الكريم: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[1].

٢. الشبهة الثانية: الأموات لا يسمعون نداءنا (سماع الموتى):

شبهة الوهابية: يستندون إلى آيات مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾، ويدَّعون أنَّ النبي والأئمة عليهم السلام قد فارقوا الحياة وأصبحوا جمادات، فالتوسُّل بهم لغوٌ وعبث.

ردُّ الشيعة:

أولاً: الشهداء وأولياء الله أحياءٌ بنص القرآن الكريم: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾[2].

ثانياً: ورد في صحيح البخاري أنَّ النبي صلى الله عليه وآله خاطب قتلى بدر، ولما اعترض عمر بن الخطاب، أجابه النبي صلى الله عليه وآله: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»[3].

(١) السيد محسن الأمين: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، ص٢١٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٤.

(٣) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار طوق النجاة، ج٥، ص٧٦،

٣. الشبهة الثالثة: التوسُّل شبيهٌ بفعل مشركي الجاهلية

شبهة الوهابية: كان مشركو زمان النبي صلى الله عليه وآله يقولون: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾[1]، ويدَّعي الوهابيون أنَّ المتوسلين بأهل البيت عليهم السلام يرددون الكلام ذاته.

ردُّ الشيعة: الفرق الجوهري يكمن في «المُتوسَّل به»؛ فالأصنام كانت جمادات لا قيمة لها، وكان المشركون يعتقدون بامتلاكها قدرة مستقلة أو أنَّها «أربابٌ صغار». أمَّا الشيعة، فيعتقدون أنَّ أهل البيت عليهم السلام عبادٌ مأذونون من الله. إنَّ قياس أولياء الله بالأصنام هو إهانةٌ لمقام النبوة[2].

٤. الشبهة الرابعة: نداء الميت «دعاءٌ» وعبادةٌ لغير الله:

شبهة الوهابية: يدَّعي ابن تيمية أنَّ أي نوع من النداء (الدعاء) لغير الله هو عبادة، وبناءً عليه فإنَّ قول «يا علي» أو «يا رسول الله» هو شرك.

ردُّ الشيعة: كلمة «الدعاء» في القرآن استُخدمت بمعنى

باب قتل أبي جهل.

(١) سورة الزمر: الآية ٣.

(٢) العلَّامة الطباطبائي: تفسير الميزان، ذيل الآية ٣ من سورة الزمر، ج١٧.

«العبادة» تارة، وبمعنى «النداء البسيط» تارة أخرى. فلو كان كل نداء شركاً، لكان نداء الأحياء شركاً أيضاً! إنَّ ملاك الشرك هو الاعتقاد بالخالقية والمؤثرية المستقلة، لا مجرد المناداة والطلب[1].

٥. الشبهة الخامسة: التوسُّل كان جائزاً في حياة النبي فحسب:

شبهة الوهابية: يزعم الوهابيون أنَّ الصحابة كانوا يطلبون الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله في حياته فقط، وتركوا ذلك بعد وفاته.

ردُّ الشيعة: توجد روايات عديدة تفند هذا الادعاء، منها رواية «عثمان بن حنيف» الذي علَّم رجلاً أن يتوسَّل برسول الله صلى الله عليه وآله ليقضي حاجته حتى بعد رحيل النبي. وكذلك توسَّل «بلال بن الحارث» عند قبر النبي صلى الله عليه وآله في زمن خلافة عمر، وهو ما ثبت في كتب أهل السنة[2].

خلاصة البحث:

في أهم شبهات الفرقة الوهابية حول التوسُّل بأولياء الله

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل: محمد نسيب الرفاعي (من علماء السلفية)، ص١٥٨ (في نقد مباني ابن تيمية).

(٢) انظر: المعجم الكبير: الطبراني، ج٩، ص٣١. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج٢، ص٤٩٥.

وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، بناءً على المباحث المطروحة، يمكن تلخيص استنتاجات هذا البحث في ثلاثة محاور رئيسية:

١. **التمايز بين «الوساطة» و«الاستقلال»**: إنَّ الرد الجوهري على شبهات الوهابية يكمن في تبيين الحد الفاصل بين التوحيد والشرك. ففي الفكر الشيعي، لا يملك أهل البيت عليهم السلام أي قدرة «مستقلة عن إرادة الله»، بل هم «مجاري الفيض الإلهي» والوسائط التي أمر اللهُ سبحانه بالتقرب إليه من خلالها. لذا، فإنَّ التوسُّل ليس شركاً فحسب، بل هو عين الإقرار بالتوحيد واعترافٌ بفقر العبد بين يدي الخالق.

٢. **الحياة البرزخية والتواصل مع الأولياء**: إنَّ شبهة «عدم سماع الموتى» تتناقض مع النصوص الصريحة من الكتاب والسنة. فمن المنظور الكلامي، ليس الموت للنبي والإمام نهايةً لأثرهم، بل هو انتقالٌ إلى نشأة أسمى (البرزخ)، حيث يكون إشرافهم على عالم المادة وزوارهم أقوى بمراحل مما كان عليه في حياتهم الدنيا.

٣. **تناغم العقل والقرآن والسنة**: إنَّ التوسُّل سنةٌ مستمرة ومستقرة بين المسلمين (شيعةً وجمهور أهل السنة)، وجذوره

ممتدة في سيرة الصحابة. لقد حاولت الوهابية عبر قراءة سطحية وظاهرية للآيات المتعلقة بعبدة الأصنام أن تسوي بين «تكريم الأولياء» و«عبادة الأوثان»، في حين أنَّ ماهية هذين الفعلين (من حيث النية والاعتقاد) متباينة تماماً.

وفي الختام، التوسُّل هو الجسر للتقرب إلى الله عبر المسار الذي حدده هو بنفسه، أيْ: السير من خلال أولئك الذين هم أحبُّ عباده إليه.

الفصل الثالث:
التوسُّل في ميزان القرآن وسيرة الصحابة

الرد على شبهات الوهابية بالاعتماد على مصادر أهل السنة:

التوسُّل، بمعنى التمسك بوسيلة للتقرب إلى الله تعالى، هو من التعاليم الإسلامية الأصيلة التي ضربت بجذورها في الوحي والسنة النبوية. وخلافاً لمزاعم التيارات التكفيرية التي تضع التوسُّل في كفة واحدة مع الشرك، فإنَّ استقراء آيات القرآن وسلوك الصحابة يُثبت مشروعية هذا العمل، بل واستحبابه في المنظومة الاعتقادية الإسلامية.

التوسُّل في مرآة القرآن الكريم: إنَّ القرآن الكريم لا ينفي التوسُّل فحسب، بل يدعو المؤمنين صراحةً إلى ابتغاء «الوسيلة» لنيل القرب الإلهي، مؤكداً على دور الوسائط القدسية في هذا المسار.

ابتغاء الوسيلة: يقول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا**

﴿الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1]. كلمة «الوسيلة» في هذه الآية جاءت عامة، وهي تشمل الإيمان، والعمل الصالح، ودعاء أولياء الله.

التوسُّل بمقام النبيﷺ: يُعرف القرآنُ الكريم الحضورَ عند النبيﷺ واستغفارَه بأنَّه طريقٌ لقبول التوبة: ﴿...وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[2].

١. الأمر العام بابتغاء «الوسيلة»:

الآية المحورية في هذا الباب هي أمرٌ صريح للمؤمنين بإيجاد واسطة للتقرب إلى الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[3]. الوسيلة في اللغة هي ما يُتقرب به إلى الغير، ويعتقد كبار المفسرين - مثل الطبرسي في «مجمع البيان» والفخر الرازي في «التفسير الكبير» - أنَّ «الوسيلة» تشمل الأعمال الصالحة والأنبياء وأولياء الله الذين لهم جاهٌ عند الله.

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٥.

٢. التوسُّل بـ «دعاء النبي» للمغفرة (الشفاعة):

يحث القرآن الكريم المذنبين صراحةً على الذهاب إلى النبي صلى الله عليه وآله - بدلاً من الاكتفاء بالاستغفار المنفرد - ليطلب لهم المغفرة أيضاً: ﴿...**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾[1]. تُثبت هذه الآية أنَّ استغفار النبي صلى الله عليه وآله بوصفه «وسيلة»، له تأثير قطعي في قبول التوبة.

٣. توسل أبناء الأنبياء بمقام الأب (سيرة الأنبياء):

في قصة النبي يوسف عليه السلام، نجد إخوته -وهم مذنبون- توسلوا بمقام نبوة أبيهم: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾[2]. ردَّ النبي يعقوب عليه السلام: لم يَعُدَّ هذا الطلب شركاً، بل وافق على طلبهم قائلاً: ﴿**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي...**﴾[3].

٤. التوسُّل بـ «الأشياء» المنسوبة للأولياء (التبرك):

يُبيِّن القرآن الكريم أنَّ حتى الأشياء المرتبطة بالأنبياء يمكن

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٩٧.
(٣) سورة يوسف: الآية ٩٨.

أن تكون وسيلة للخير والشفاء: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...**﴾[1]. إنَّ شفاء عين النبي يعقوب بقميص يوسف عليهما السلام هو نموذج واضح للتوسل بالآثار التي تباركت بسبب انتسابها لولي الله.

٥. التوسُّل بـ «الكلمات الإلهية» (مقام الصفوة):

في قصة توبة آدم عليه السلام، يذكر القرآن الكريم أنَّه تلقَّى كلمات من ربِّه فتاب عليه: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...**﴾[2]. وقد روى الكثير من المفسرين (ومنهم جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور»، ج١، ص٦٠) أنَّ هذه الكلمات كانت توسَّلاً بأصحاب الكساء الخمسة عليهم السلام، حيث نادى آدمُ ربَّه متوسلاً بجاههم.

نتيجة الأدلة القرآنية:

يُستخلص من مجموع هذه الآيات أنَّ:

١. أصل التوسُّل أمرٌ قرآني (سورة المائدة: الآية ٣٥).

(١) سورة يوسف: الآية ٩٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

٢. اتخاذ النبي واسطة هو السبيل الأسرع لقبول التوبة (سورة النساء: الآية ٦٤).

٣. طلب الدعاء من الصالحين هو سنة أبناء الأنبياء (سورة يوسف: الآية ٩٧).

٤. التوسُّل لا يتنافى مع التوحيد؛ لأنَّ كل هذه الوسائط إنَّما تؤثر بإذن الله وإرادته.

سيرة الصحابة وسنَّتهم العملية:

كان الصحابة - وهم الأقرب لعصر الوحي - يتوسلون بالنبيﷺ وبكبار الدين في حياته وبعد رحيله.

أ- **التوسُّل في حياة النبيﷺ**: من أشهر الأحاديث في هذا الباب حديث «الرجل الضرير» المروي عن عثمان بن حنيف في مصادر أهل السنة المعتبرة، حيث علَّمه النبيﷺ أن يدعو قائلاً: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ...**»[1].

ب- **التوسُّل بمقام النبيﷺ بعد رحيله**: توسَّل الكثير من

(١) انظر: سنن الترمذي، ج٥، ص٥٦٠، حديث ٣٥٧٨ (وقال عنه: حسن صحيح غريب). سنن ابن ماجه: ج١، ص٤٤١.

الصحابة بالنبيﷺ بعد وفاته، ومن ذلك:

توسل بلال بن الحارث: في زمن خلافة عمر بن الخطاب، أصاب الناس قحط شديد (عام الرمادة)، فجاء بلال بن الحارثرضي الله عنه إلى قبر النبيﷺ وقال: «يا رسول الله! استسقِ لأمتك فإنَّهم قد هلكوا»[1].

ج- **التوسُّل بأقارب النبي (توسل عمر بالعباس)**: ورد في صحيح البخاري أنَّ عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب (عمُّ النبيﷺ) وقال: «اللَّهم إنَّا كنَّا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا»[2].

الرد على شبهة: هل التوسُّل بالأموات شرك؟

يدَّعي المعارضون أنَّ التوسُّل بالنبيﷺ بعد رحيله هو نداء لـ «ميت» وهو شرك، والرد على هذا الادعاء هو كالتالي:

١. الحياة البرزخية: بنص القرآن، الشهداء والأنبياء أحياء

(١) انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج٢، ص٤٩٥. ابن أبي شيبة: المصنف، ج٧، ص٤٨٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجمعة، حديث ١٠١٠.

عند ربِّهم.

٢. الفرق بين «الدعاء» و«العبادة»: المتوسِّل لا يعبد النبي، بل يراه وجيهاً عند الله مستجاب الدعوة. وحقيقة التوسُّل هي طلب «الدعاء» من صاحب المقام لا عبادته.

النتيجة: التوسُّل سنة قرآنية ونبوية، وسيرة الصحابة تثبت أنَّه لا تضاد بين «الدعاء لله» و«اتخاذ أصفيائه وسيلة».

الفصل الرابع:
تجلي التوسُّل في سلوك علماء الإسلام
(دراسة مقارنة لسيرة العلماء المتقدمين والمتأخرين)

سيرة العلماء المتقدمين:

الشيخ الكليني والشيخ الصدوق؛ نظرة وجيزة على حياتهما ومكانتهما العلمية:

في تاريخ التشيع المليء بالمنعطفات، يُعد القرن الرابع الهجري العصر الذهبي لتدوين العلوم وصيانة تراث أهل البيت عليهم السلام. وفي طليعة هذه الحركة الحضارية، تتلألأ شخصيات بارزة يدين لها الهوية العلمية الشيعية بمجاهداتهم العظيمة.

- محمد بن يعقوب الكليني (ثقة الإسلام) المتوفى سنة ٣٢٩هـ:

عاش في عصر الغيبة الصغرى، وبسبب إتقانه في العلم وعدالته في الرواية، كان موضع ثقة جميع الفرق الإسلامية، لدرجة أنَّه لُقِّب بأول «مجدِّد» للدين في المذهب الشيعي.

أرسى الشيخ الكليني بتدوينه كتاب «الكافي» حجر الأساس لأول موسوعة حديثية جامعة للشيعة. وفي ظل الاضطرابات السياسية آنذاك، قام بجمع الأحاديث الأصيلة من «الأصول الأربعمائة»، فحال بذلك دون ضياع التراث العلمي للأئمة عليهم السلام. ومن هذا المنطلق، يحظى دوره بأهمية ومكانة رفيعة في حياة التشيع العلوي، إذ قدم خدمة جليلة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام من خلال تنظيم العقائد والكلام الشيعي الاثني عشري في عصر الغيبة الصغرى عبر تصنيفه لكتاب الكافي.

وكتاب «الكافي» يعدُّ من آثاره الشامخة والذي يتألف من ثلاثة أقسام (الأصول، الفروع، والروضة)، ويضم أكثر من (١٦) ألف حديث. كما يمكن الإشارة إلى مؤلفاته الأخرى مثل كتاب «تعبير الرؤيا» وكتاب «رسائل الأئمة عليهم السلام».

أبرز تجليات التوسُّل والارتباط المعنوي لديه، تكمن في تدوين كتاب حظي بتأييد ضمني أو عناية خاصة من ولي العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

عرض الكتاب على الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، رغم أنَّ الرواية

المشهورة «الكافي كافٍ لشيعتنا» لم ترد كحديث مسند في المصادر المتقدمة من حيث السند، إلَّا أنَّ كبار العلماء يعتقدون بناءً على القرائن أنَّ الكليني صان محتوى الكتاب عبر التوسُّل والارتباط بالنواب الأربعة[1].

- محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق) المتوفى سنة ٣٨١هـ:

وُلد ببركة دعاء الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، ولُقِّب بأكبر محدِّث في تاريخ الشيعة. كانت حياته رحلة مستمرة للبحث عن الأحاديث وترويج مذهب التشيع. تكمن مكانة الشيخ الصدوق لدى الشيعة في أنَّه أقام الرابطة بين «الحديث» و«الكلام»؛ فمن خلال تصنيفه لمؤلفات تخصصية، تصدَّى للشبهات العقائدية في عصره، وصان ورواها الزيارات المأثورة (مثل الزيارة الجامعة الكبيرة) التي تُعد من أرقى النصوص المعرفية الشيعية.

آثاره العلمية: ألَّف أكثر من (٣٠٠) أثر، أشهرها كتاب «مَن لا يحضره الفقيه» (أحد الكتب الأربعة للشيعة). كما تُعد

(١) انظر: الميرزا حسين النوري: خاتمة مستدرك الوسائل، ج٣، ص٤٦٩ (تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام). تحدث المحدث النوري في هذه الصفحة بالتفصيل عن اعتبار الكافي وعناية المعصوم به.

كتبه: «كمال الدين» (حول الغيبة)، «عيون أخبار الرضا عليه السلام»، «الخصال»، و«التوحيد» من المصادر الأولية والأساسية للعقائد الشيعية.

الشيخ الصدوق رضي الله عنه؛ مولود التوسُّل وكاتبٌ بإذن المعصوم عليه السلام:

ارتبطت حياته من بدايتها إلى نهايتها بمعجزة التوسُّل، وكان يرى نفسه مديناً بوجوده لـ «دعاء الإمام».

الولادة ببركة دعاء الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف: أوثق سند في سيرة الصدوق هو رسالة والده (علي بن بابويه) إلى محضر الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف عبر الحسين بن روح النوبختي. فجاء الرد من الإمام: «**قد دعونا الله لك بذلك، وسيرزقك الله ولدين ذكرين خيرين فقيهين**». وكان الصدوق يفخر دائماً بأنَّه وُلد بدعاء الإمام عليه السلام[1].

التوسُّل لتأليف كتاب «كمال الدين»: يذكر الشيخ الصدوق في مقدمة كتابه أنَّه بعد عودته من مشهد المقدسة، رأى في عالم

(١) انظر: الشيخ الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٤٩٠، الباب ٤٥، الحديث ٤ (منشورات الإسلامية). وأيضاً: النجاشي: رجال النجاشي، ص٢٦١، الرقم ٦٨٤. ينقل النجاشي أنَّ الصدوق كان يقول: «أنا وُلدتُ بدعوة صاحب الأمر».

الرؤيا (وهي للأعاظم نوع من المكاشفة والتوسل) أنَّه تشرف بلقاء الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف. فعاتبه الإمام قائلاً: لِمَ لا تصنِّف كتاباً في الغيبة؟ فقال الصدوق: «يا ابن رسول الله، قد صنفتُ في الغيبة أشياء». فقال الإمام عليه السلام: «ليس على ذلك السبيل، ولكن صنِّف كتاباً تذكر فيه غيبات الأنبياء». يقول الصدوق: استيقظتُ من نومي وبدأتُ بكتابة هذا الأثر العظيم بالبكاء والتوسل[1].

التوسُّل في زيارة مشهد المقدسة: أشار الصدوق في كتابه «عيون أخبار الرضا عليه السلام» مراراً إلى الآثار التربوية والعلمية للزيارة، وكان يتوسل بزيارة الإمام الرضا عليه السلام لحل معضلاته العلمية[2].

الخاتمة (للكليني والصدوق): بالنسبة للكليني والصدوق، وسائر حراس المعرفة العلوية، لم يكن الحديث مجرد بيانات تاريخية، بل كان أمانة إلهية. لذا تُظهر سيرتهما أنَّهما لم يجدا العقل البشري كافياً لصيانة هذه الأمانة، بل سعيا وراء «طريقة الوصول

(١) الشيخ الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، مقدمة المؤلف، ص٢ و٣ (طبعة دار الكتب الإسلامية).

(٢) الشيخ الصدوق: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٧٩ (باب زيارة الرضا عليه السلام).

إلى الحقيقة» عبر الاستمداد الغيبي (التوسل). فالكليني بجهاده طوال (٢٠) عاماً في ظل النواب، والصدوق بنسبة كل كلمة من كلماته لدعاء الإمام عليه السلام، قد وضعا حجر الأساس لمدرسة «العلم المقترن بالاستغاثة».

- الشيخ المفيد (المتوفى سنة ٤١٣هـ):

في المنظومة الفكرية لعلماء السلف، كان «التوسل» أداةً لصيانة الفكر من الزلل. ويُعد الشيخ المفيد وتلميذه السيد المرتضى من النماذج العليا للعلماء الذين أثبتوا أنَّ الانسدادات العلمية لا تُحل بالاعتماد المحض على العقل، بل بالاستمداد من منبع الوحي. بلغت مكانة الشيخ المفيد حداً رفيعاً جعل «التوقيعات» (الرسائل) تصدر إليه من جانب حضرت ولي العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهي رسائل لم تقتصر على جنبة المودة فحسب، بل كانت تحمل توجيهاً علمياً واجتماعياً.

كان الشيخ المفيد رضي الله عنه يؤمن بأنَّ مرابط التشيع لا ينبغي أن يبقى وحيداً في تبيين الحقائق. لذا أدى توسله المستمر بالساحة المقدسة لصاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف إلى صدور توقيعات كانت بمثابة

«منشور الدعم الغيبي» لحركة العلم.

التوسُّل لصيانة الفتاوى: مما اشتهر أنَّ الشيخ المفيد أخطأ في مسألة فقهية (تتعلق بدفن امرأة حامل متوفاة)، فتجلَّت عناية صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف في صورة شخص أوصل الحكم الصحيح إلى مرسول الشيخ. وبعد علم الشيخ بذلك، اعتزل الإفتاء بالبكاء والتوسُّل، حتى وردته رسالة من الإمام عجل الله فرجه الشريف نصُّها: «**عَلَيْكَ الْإِفْتَاءُ وَعَلَيْنَا تَسْدِيدُك**». تُظهر هذه الواقعة أنَّ التوسُّل في سيرة المفيد قد أوجد «نظاماً رقابياً» يحفظ حقيقة الدين من شائبة الخطأ البشري[1].

التوسُّل لهداية المجتمع في الغيبة: إنَّ التوقيعات التي صدرت بمخاطبة «**الأخ السديد والولي الرشيد**»، كانت في الواقع استجابة من الإمام لتوسلات الشيخ وهواجسه لحفظ الشيعة، حيث طمأنه الإمام عجل الله فرجه الشريف قائلاً: «**إِنَّا غَيْرُ مُهْمِلِينَ لِمُرَاعَاتِكُمْ**»[2].

(١) انظر: التنكابني: قصص العلماء، ص٣٩٩. المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٧٥.

(٢) الطبرسي: الاحتجاج، ج٢، ص٤٩٧.

- السيد المرتضى (علم الهدى):

كان السيد المرتضى، الملقَّب بـ «الشريف المرتضى»، يرى في التوسُّل رابطة دموية ومعنوية بأجداده الطاهرين. وكان يعتقد أنَّ العقل الفعّال إنَّما يصل إلى الحقيقة حين يتصل بنور «الإمام».

نيل اللقب عبر التوسُّل الغيبي: لقب «علم الهدى» لم يمنحه إياه الناس، بل وُهب له من جانب أمير المؤمنين عليه السلام خلال توسل ومكاشفة وقعت للوزير آنذاك (أبو سعيد). دلَّت هذه الواقعة على أنَّ الرتب العلمية في التشيع تحمل في طياتها توقيعاً ملكوتياً[1].

التوسّل كمنهج للتحقيق: في حله للمسائل الكلامية المعقدة التي عجز عنها عقل بغداد، صنَّف السيد المرتضى آثاراً كـ «الذريعة» و«الشافي» ببركة التوسُّل بساحة الرسول صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام. وكان يرى التوسُّل «مُصفِّياً» للذهن من كدورات الهوى، لتشرق حقيقة العلم على مرآة روحه.

الخلاصة:

تثبت سيرة المفيد والمرتضى أنَّ التوسُّل في مدرسة أهل

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٣١٣.

البيت عليهم السلام شرطٌ لازم للإتقان العلمي. فقد أظهر هذان العظيمان أنَّ العالم المتوسِّل لا يقف في طريق مسدود أبداً؛ لأنَّه حيثما تعثر سراج العقل، يفتح التوسُّل طريقاً نحو شمس الوحي. لقد علمونا أنَّ مراسلة الإمام للعالم هي ثمرة عمرٍ من النداء المخلص «يا صاحب الزمان» في سجدات السحر.

- الخواجة نصير الدين الطوسي، الفناء في الولاية والتعفير في عتبة الكاظمين:

في سيرة «أستاذ البشر» و«العقل الحادي عشر»، الخواجة نصير الدين الطوسي (المتوفى سنة ٦٧٢هـ)، تجاوز «التوسل» بأهل البيت عليهم السلام كونه مجرد عمل عبادي، ليرتقي إلى مقام «الفناء في المحبوب». فهو الذي غيَّر بنبوغه آفاق الرياضيات والفلك والفلسفة، كان يرى نفسه في ساحة الولاية قطرةً في قبال محيطٍ لا يُحد.

تجلَّت ذروة توسله وتواضعه في وصيته التاريخية، فبينما اقترح عليه تلامذته ومقربوه أن يُدفن بجوار ضريح الإمام الرضا عليه السلام أو في النجف الأشرف، اختار برؤيةٍ نابعة من روح التوسُّل

العميقة أن يُـوارى الثرى في عتبة الإمامين الجوادين (موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام) في بغداد (الكاظمية).

نقشٌ للتعفير والخضوع: أوصى الخواجة أن لا يُكتب على قبره أي لقب علمي كـ (سلطان المحققين أو فخر الحكماء)، بل أمر بنقش الآية (١٨) من سورة الكهف فحسب: ﴿**وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾. إنَّ اختيار هذه الآية يمثل أسمى مراتب التوسُّل السلوكي؛ إذ وضع نفسه مقام «كلبٍ» باسطٍ ذراعيه عند عتبة الولاية، ليُثبت أنَّ علوم الأولين والآخرين لا اعتبار لها أمام عظمة الإمام[1].

الكرامة العجيبة عند الدفن: ومما يُثير الدهشة في سيرة توسله، ما حدث أثناء حفر قبره، فحين كان المعماريون يهيئون السرداب لدفنه في الحرم الكاظمي، وجدوا سرداباً مشيداً ومزيناً، وتبين بعد البحث أنَّ الخليفة الناصر لدين الله كان قد بناه لنفسه قبل ١٦٥ عاماً ولم يُدفن فيه. والأعجب من ذلك أن تاريخ إتمام بناء السرداب وافق تماماً يوم ولادة الخواجة نصير الدين (١١ جمادى

(١) انظر: الخوانساري: روضات الجنات، ج٦، ص٣٠٠. المدرس التبريزي: ريحانة الأدب، ج٣، ص٤٨٣.

الأولى ٥٩٧هـ). وقد اعتبر الأعاظم هذا التوافق علامةً على قبول توسلاته وعناية خاصة من الإمامين الكاظمين عليهما السلام، وكأنَّ مأواه في عتبة الولاية كان محجوزاً له منذ مولده[1].

اعتبر الخواجة في كتابه الخالد «تجريد الاعتقاد» التوسُّل والشفاعة من الأصول الاعتقادية المبرهنة، وأثبت نظرياً وعملياً أنَّ العقل لا يبلغ الكمال في مسير التوحيد دون «واسطة الفيض».

الخلاصة: إنَّ سيرة الخواجة نصير الدين الطوسي تُعلمنا أنَّه كلَّما اتسعت سعة العالم العلمية، زاد عطشه للتوسل وحاجته للاعتصام بحصن الولاية.

إنَّ التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام في سيرة العلماء والعرفاء ليس مجرد رابطة عاطفية، بل هو استراتيجية معرفية لنيل تهذيب النفس والفتوحات العلمية والمعنوية. فقد آمن كبارنا بأنَّه لا يمكن طي طريق الكمال دون هذه الوسائط الإلهية. وفيما يلي نستعرض نماذج بارزة من سيرة الشخصيات العلمية الكبرى في العالم الإسلامي:

(١) الأمين العاملي: أعيان الشيعة، ج٩، ص٤١٦.

- الشيخ الأنصاري وصاحب الجواهر، الفقه في ملاذ باب مدينة العلم:

شهدت النجف الأشرف في القرن الثالث عشر الهجري بزوغ قمتين في الفقاهة: الشيخ محمد حسن النجفي (صاحب الجواهر) وتلميذه البارز الشيخ مرتضى الأنصاري. تُظهر سيرة هذين العظيمين أنَّ «الاجتهاد» لديهما لم يكن عملية ذهنية بحتة، بل كان مزيجاً من الاستدلال العقلي والاستمداد القلبي (التوسل).

الشيخ مرتضى الأنصاري قدس سره:

الشيخ الأنصاري، الذي يُلقب بـ «خاتم المجتهدين»، ورغم نبوغه المذهل الذي أسس لبنية الفقه الشيعي الحديث، كان يرى نفسه مفتقراً دائماً لعناية أمير المؤمنين عليه السلام.

في أحوال الشيخ الأعظم، نُقل عن الشيخ الأنصاري أنَّه كلما وصل إلى طريق مسدود في تبيين مسألة فقهية معقدة وتوقف قلمه عن الجريان، كان يترك التحقيق ويشد الرحال إلى حرم الإمام علي عليه السلام وفي زاوية من زوايا الحرم، كان يشرع بالتضرع

والتوسُّل، مؤمناً بأنَّ «مفتاح الفهم» لدقائق الشريعة هو بيد صاحب الشريعة.

لم يكن التوسُّل بالنسبة للشيخ طريقاً مختصراً للهروب من عناء التفكير، بل كان وسيلة لـ «نورانية الذهن» كي يتمكن من استخراج الحق من بين ركام الاحتمالات. كانت سيرته تقوم على الحضور في الحرم المطهر قبل طلوع الفجر، ليتوسل بمقام الولاية ويُؤمِّن درسه ذلك اليوم معنوياً. وقد نقل تلامذته أنَّ قوة استدلاله العجيبة في مجلس درسه، لم تكن إلَّا انعكاساً لتلك التوسلات السحرية[1].

صاحب الجواهر، التوسُّل لإتمام موسوعة الفقه:

أفنى الشيخ محمد حسن النجفي (المتوفى سنة ١٢٦٦هـ)، صاحب الكتاب العظيم «جواهر الكلام»، ثلاثين عاماً من عمره في تدوين هذا الأثر. وكان يرى التوسُّل هو «الحافظ» لهذا الجهاد الطويل.

(١) انظر: ناصر باقري بيدهندي: أنديشمندان جاويد (سيرة الشيخ الأنصاري)، ص٨٢. مرتضى الأنصاري (حفيد الشيخ): حياة وشخصية الشيخ الأنصاري، ص١٧٥.

في شرح حال هذا العالم الكبير، وفي المراحل الختامية لكتابة الجواهر، أُصيب بمرض شديد، فخشي أن يدركه الموت قبل إتمام الكتاب. فتوسَّل بالساحة المقدَّسة لأمير المؤمنين عليه السلام والسيدة الزهراء عليها السلام طلباً لطول العمر والبركة في الوقت. وبعد إتمام الكتاب، صرَّح بأنَّ هذا العمل الجبَّار لم يكن ليتم لولا العناية الغيبية والاستمداد من الأرواح الطيبة للمعصومين عليهم السلام.

كان صاحب الجواهر يعتقد أنَّ الفقاهة بلا صلة بالولاية هي «جسدٌ بلا روح». لذا ورد في سيرته أنَّه كلَّما واجه طريقاً مسدوداً في تعارض الروايات، كان يستغيث بمقام الإمامة طلباً لـ «التسديد» (الثبات في الرأي)[1].

الخلاصة:

تُعلِّمنا سيرة صاحب الجواهر والشيخ الأنصاري أنَّ «الفقاهة المحضة» تمر عبر طريق «الولاء المحض». لقد أثبتوا للعالم أنَّ النجف الأشرف ليست مجرد مدرسة علمية، بل هي رحابٌ للتوسل تشرق فيه شمس الولاية على روح الفقيه، فتجلو

(١) انظر: محمد حرز الدين: معارف الرجال، ج٢، ص٢٢٥. آغا بزرك الطهراني: الذريعة، ج٥، ص٢٧٥.

غبار الشك عن مرآة الاجتهاد. إنَّ توسلات هذين العظيمين في السَّحَر أثبتت أنَّه لفهم كلام الله، لا بدَّ من الاستعانة بـ «وسائط فيض» الله؛ ذلك أنَّ العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء، وهذا النور يُقسَّم عند أعتاب علي عليه السلام.

- العلامة الطباطبائي والذوبان في الولاية:

كان لصاحب «تفسير الميزان» ارتقاءٌ عجيب في مودته للعتبة الرضوية المقدسة، فكان طوال فترة إقامته في «قم»، يرحل صيفاً إلى «مشهد»، معتقداً أنَّ كل بركاته العلمية هي ثمرة التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام. وينقل تلامذته أنَّه كان إذا وصل إلى حرم الإمام الرضا عليه السلام، يقبِّل الضريح بتواضع لا يوصف ويقول: «على الإنسان حين يأتي إلى هنا أن يتخلى عن جميع معلوماته، ويقف موقف السائل الفقير خالي الوفاض»[1].

- الشيخ عبد الكريم الحائري والشفاء النهائي:

كان مؤسِّس حوزة قم العلمية يتوسَّل بساحة الإمام صاحب الزمان عجل الله فرجه في كافة معضلات الحوزة الكبرى. بل كان يرى التوسُّل بمجالس عزاء سيد الشهداء عليه السلام هو المفتاح الأساسي حتى في أدق

(١) كتاب «يادنامه» (في محضر الحكيم العارف العلامة الطباطبائي)، ص٢٤.

مسائل الحياة، مؤمناً أنَّ إقامة هذه المجالس هي مادة بقاء روح الإيمان في قلوب الطلاب وعامة الناس[1].

- آية الله البهجت والزيارة اليومية:

كان آية الله محمد تقي البهجت يواظب حتى آخر أيام عمره المبارك، ورغم ضعفه الجسدي، على زيارة السيدة معصومة عليها السلام يومياً، حيث كان يقرأ الزيارة واقفاً. وكان يرى أنَّ التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام وحضور مجالس الرثاء من أعظم العبادات التي تختصر الطريق نحو المقصد[2].

- ابن سينا وتوسله لحل المعضلات العلمية:

كانت سيرة الشيخ الرئيس ابن سينا في مواجهة الصعاب العلمية مزيجاً من الجهد الفكري والاستمداد من القوة الإلهية. فكان إذا استُغلق عليه فهم مسألة، فزع إلى العبادة والتضرُّع. وكتب في سيرته الذاتية: «كنتُ إذا تحيرتُ في مسألة... مضيتُ إلى الجامع وصلَّيتُ وابتهلتُ إلى مبدع الكل، حتى فتح لي منغلقها

(١) رضا مختاري: كتاب سيرة الصالحين، ص٣٥٢.

(٢) محمد حسين رخشاد: كتاب «في محضر آية الله البهجت»، ج١، ص١٠٦.

وتيسَّر لي متعسرها»[1].

- آية الله المرعشي النجفي:

ارتبطت سيرة آية الله العظمى السيد شهاب الدين المرعشي النجفي بمفهوم «التمسُّك في الولاية»، فكان التوسُّل لديه هو المتن لا الهامش.

التوسُّل لإنقاذ الذخائر العلمية: بذل جهوداً مضنية لشراء المخطوطات وحمايتها من نهب المستعمرين (بما في ذلك الصوم والصلاة الاستئجارية لتوفير المال). وكان كلَّما عجز عن ثمن مخطوطة نادرة، توسَّل بالإمام الحجة عجل الله فرجه، ونُقل عنه مراراً أنَّ المبالغ كانت تتوفر بصورة غير متوقعة[2].

الخلاصة والنتيجة: إنَّ التوسُّل في مدرسة هؤلاء العلماء ليس مجرد «سؤال فقر»، بل هو «ضبطٌ لبوصلة الوجود» على منبع الفيض الإلهي. لقد تعلَّموا أنَّ العقل البشري، مهما بلغ من القوة، يحتاج في المنعطفات الصعبة وظلمات الجهل إلى نورٍ لا يشرق إلَّا من مشكاة أهل البيت عليهم السلام. فلم تكن المشاهد المشرفة

(١) جمال الدين القفطي: كتاب «تاريخ الحكماء»، ص٤١٣.

(٢) كتاب «شرح حال آية الله العظمى المرعشي النجفي»، ص١٢٠.

لديهم مجرد أماكن للزيارة، بل كانت «جامعات عليا» و«غرفاً لحل المعضلات».

كلمة ختامية: مما لا شكَّ فيه أنَّ البحر الخضم لسيرة مئات العلماء (من الشيخ المفيد والسيد بن طاووس وصولاً إلى الحكماء المعاصرين) في باب التوسُّل، لا يمكن حصره في هذه الوجيزة. لكن القدر المتيقن وجوهر كلامهم جميعاً هو: أنَّ الطريق الأقصر للوصول إلى قمم العلم والعبودية يمرُّ عبر أعتاب أولئك الذين جعلهم الله مخازن علمه وأبواب رحمته.

القسم السادس:
الأبعاد النفسية، التربوية والاجتماعية

الفصل الأول:
المقاربة بين المناهج (التوسُّل وعلم النفس)

يُعرف التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام في علم النفس العلمي بوصفه «آلية توافق روحية» وعملية لإعادة بناء المنظومة الدلالية للفرد. هذه الظاهرة تتجاوز مجرد التفريغ الانفعالي البسيط، فهي في الواقع «إعادة تنظيم معرفي»، حيث يبتعد الفرد عبر إقامة رابطة عاطفية ومعرفية مع النماذج الإنسانية الكاملة عن شعور الضياع في الوجود، ويتصل بمصدر القدرة والرحمة اللامتناهية.

المكونات النفسية الرئيسية في التوسل:

- **الارتباط الآمن:** يؤدِّي التوسُّل عبر خلق علاقة عمودية وحميمة مع وسائط الفيض إلى تشكيل نوع من «الارتباط الآمن»

الذي يقلل من القلق الوجودي الأساسي.

- **تعزيز الكفاءة الذاتية:** خلافاً للتصورات القائمة على الانفعال المحض، فإنَّ التوسُّل - بالاستناد إلى «الدعم الغيبي» - يقوي الإرادة والجسارة لدى الفرد للتغلب على التحديات، ويرفع من مستوى «المرونة النفسية» أمام الشدائد بشكل ملحوظ.

- **إضفاء الهوية المتعالية:** تمنح هذه العملية «الذاتَ» اتجاهاً عبر تقديم نماذج عينية (أهل البيت)، وتمنع الانهيار النفسي في الأزمات من خلال إضفاء معنىً على المعاناة.

التوسُّل من وجهات نظر سيكولوجية مختلفة:

١. مصدر الضبط وخفض القلق: من الناحية النفسية، يصاب الإنسان بقلق شديد عندما يواجه أزمات خارجة عن سيطرته. التوسُّل يعمل على نقل جزء من عبء المسؤولية إلى قوة عليا ووسائط مقدسة، محولاً «مركز الضبط» من حالة داخلية عاجزة إلى حالة خارجية قديرة. إنَّ التوسُّل بالأولياء يُشعر الفرد بأنَّه ليس وحيداً، وهذا «الحضور الدائم» يؤدي إلى تقليل إفراز هورمونات التوتر[١].

(١) انظر: د. باقر غباري بناب: الاستشارة والعلاج النفسي بمقاربة روحية، ص٧٤.

٢. إعادة البناء المعرفي والتفاؤل: يساعد التوسُّل الفرد على تغيير معنى الألم. في علم النفس الإيجابي، يعد التوسُّل أداة لخلق الأمل. فالمتوسل لا يرى نهايات الحياة مسدودة، بل يعتقد بوجود «طريق مختصر» عبر الوسائط[١].

٣. نظرية الرابطة: يعتقد علماء نفس الدين أنَّ التوسُّل هو إعادة بناء لنظرية الارتباط، فكما يلجأ الطفل لأمه في الصعاب، يلجأ الإنسان في أزماته الوجودية إلى الشخصيات المقدسة، مما يعيد إليه الإحساس بـ «الأمن الجذري»[٢].

٤. التخلية العاطفية: توفر طقوس التوسُّل (كالبكاء والمناجاة والزيارة) مناخاً للتفريغ الانفعالي، مما يمنع كبت العواطف السلبية ويقي من الأمراض(النفسية البدنية)[٣].

كيف يقلل التوسُّل من التوتر؟ يؤكِّد علماء النفس أنَّ التوسُّل يواجه التوتر عبر:

- **نقل مركز السيطرة:** يبلغ التوتر ذروته عندما يشعر الفرد

(١) مرتضى مطهري: العدل الإلهي، ص٢٤٥.

(٢) مسعود آذربايجاني: علم نفس الدين، ص١٦٢.

(٣) نوري ومحمدي: التوسُّل والصحة النفسية: مقاربة تجريبية، ص٤٠.

بفقدان السيطرة. التوسُّل يُدخل «قوة عليا» في المعادلة، مما يرفع الضغط عن كاهل الفرد ويخلق «مركز ضبط خارجي إيجابي» يمنحه الأمان.

- **إيجاد منظومة معنى**: التوسُّل بالنماذج المقدسة التي عانت من الآلام (كالأئمة) يساعد الفرد على تأطير معاناته ضمن سياق أكبر، محولاً التوتر إلى صبر.

- **انتعاشُ القُوى البدنيّةِ والرُّوحيّة**: إنَّ التوسُّلَ بما يشتملُ عليه من «الرجاءِ الواثق» و«تخليةِ الوجدانيات»، يُوجِبُ الراحة والسكون؛ إذ يعملُ على تنشيطِ الجهازِ العصبيِّ الاسترخائيّ ويحطُّ من غلواءِ مادّةِ الإجهادِ والقلق في البدن، ممّا يُفضي إلى اعتدالِ المِزاجِ واستعادةِ السكينةِ المفقودة.

- **التوسُّلُ كعمليَّةِ «إعادةِ نَظمِ المَعارف»**: والحقيقةُ أنَّ التوسُّلَ يُمثّلُ عمليّةَ «إعادةِ ترتيبِ المنظومةِ الإدراكيّة» لدى العبد؛ حيثُ يقومُ المرءُ عبرَ إيجادِ «عُلقةٍ مَودّتيّةٍ ومعرفيّة» بالنماذجِ الإنسانيّةِ الشامخةِ (وهم مَظاهرُ الكمالِ الإلهي)، بنبذِ وحشةِ الاغترابِ وهواجسِ الضياعِ في قَفارِ هذا العالَم؛ ليتَّصلَ فناءُ وجودِهِ بمَعدنِ

العظمةِ والقُدرةِ والرّحمةِ الصمدانيّةِ التي لا تنفد.

المكونات النفسية الرئيسية في التوسل:

الارتباط الآمن: يؤدي التوسُّل - عبر خلق علاقة عمودية وحميمة مع وسائط الفيض - إلى تشكيل نوع من الارتباط الآمن الذي يعمل على خفض القلق الوجودي الأساسي لدى الإنسان.

تعزيز الكفاءة الذاتية: خلافاً للتصورات التي ترى في التوسُّل حالة من السلبية، فإنَّ الاستناد إلى «الدعم الغيبي» يقوي الإرادة والجسارة لدى الفرد للتغلب على التحديات، ويرفع من مستوى المرونة النفسية أمام الشدائد بشكل ملحوظ.

إضفاء الهوية المتعالية: تمنح هذه العملية «الـذاتَ» اتجاهاً ومعنىً عبر الاقتداء بالنماذج العينية (أهل البيت عليهم السلام)، مما يحمي الفرد من الانهيار النفسي في وقت الأزمات من خلال إضفاء معنىً سامٍ على المعاناة.

تستند سيكولوجية التوسُّل إلى مبدأ أنَّ هذا الفعل العبادي يخلق توازناً دقيقاً بين «الحاجة إلى الانتماء» و«الحاجة إلى التعالي»، ويضمن الصحة النفسية وتكامل الشخصية عبر الاندماج

العاطفي والنمذجة السلوكية.

تحليل تطبيقي لـ «دور الأمـل وخفض التوتر» في ثلاثة مستويات تخصيصية:

١. ميكانيكية «الأمل الفعال» في مواجهة العجز:

في علم النفس الإيجابي، ليس الأمل مجرد أمنية، بل هو مزيج من «الإرادة» و«الاستراتيجية». التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام يخرج الفرد من حالة «العجز» المتعلم. فالمتوسل لا يرى في الطرق المسدودة مادياً نهايةً للمسار؛ لإيمانه بأنَّ وسائط الفيض الإلهي تملك القدرة على تغيير المعادلات، مما يؤدي إلى طفرة في مستوى «التحمل والمثابرة».

٢. إدارة التوتر عبر «تفويض السيطرة»:

أحد الأسباب الرئيسية للتوتر هو الشعور بالمسؤولية المفرطة تجاه أمور تقع خارج نطاق سيطرة الإنسان.

في العملية النفسية في التوسُّل، يقوم الفرد بتفويض جوانب الحياة غير القابلة للسيطرة إلى «الوجهاء عند الله»، وبذلك يزيح عن كاهله عبئاً نفسياً ثقيلاً. هذا الفعل يقلل من مستويات

هرمونات التوتر (مثل الكورتيزول)، ويستبدلها بالسكينة الناتجة عن «الدعم الاجتماعي المدرك» من المصادر القدسية.

٣. إعادة تعريف المعاناة:

غالباً ما ينبع التوتر من «عبثية الألم». أمَّا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فالمعاناة هي أداة للصعود والتكامل.

النتيجة: يدفع التوسُّل بالفرد إلى إعادة قراءة معاناته الشخصية من خلال ربطها بالمعاناة العظمى للنماذج المتعالية (كصبر الإمام الحسين عليه السلام أو استقامة السيدة زينب عليها السلام). هذا «التماهي» أو المحاكاة يحول المعاناة من ظاهرة مدمرة إلى ظاهرة «محفزة للنمو».

من الناحية الاستراتيجية: يُعد التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام «جهاز مناعة نفسياً»؛ فهذه الآلية، عبر تعزيز «معنى الحياة» وإرساء «الأمن العاطفي»، تعمل على كبح التوترات المزمنة وضمان ديناميكية الشخصية في أصعب الظروف.

الفصل الثاني:
التوسُّل في النظام التربوي الإسلامي

التوسُّل في النظام التربوي الإسلامي ليس مجرد وسيلة لنيل الحاجات، بل هو عملية «صناعة ذات» ونمذجة سلوكية. فمن منظور علم النفس التربوي، يؤدي التوسُّل إلى انتقال الصفات الإيجابية من «القدوة» (المتوسَّل به) إلى «السائل» (المتوسِّل).

أهم الآثار التربوية للتوسل:

١. **الاقتداء والتماهي:** يُعد «الاقتداء» من أساسيات علم النفس التربوي. فعندما يتوسل الفرد بالشخصيات المقدسة، فإنَّه يحاول لا شعورياً تقريب سماته الأخلاقية من سماتهم ليكون أهلاً لهذا الارتباط، مما يؤدي إلى «تنمية» الفضائل الأخلاقية. يوضِّح الدكتور باقري أنَّ التوسُّل نوع من «التولي» الذي يفضي إلى تناغم عاطفي وسلوكي مع أسوات الكمال[١].

٢. **تعزيز الإرادة والفاعلية:** خلافاً للتصور السطحي بأنَّ التوسُّل

(١) خسرو باقري: نظرة ثانية في التربية الإسلامية، ص١٥٤.

يورث الخمول، فإنَّ المصادر التربوية الأصيلة تؤكد أنَّه عامل لتقوية الإرادة. فالفرد عبر استناده إلى قوة الوسائط الإلهية، يكسر الانسدادات النفسية ويواصل سعيه بطاقة مضاعفة. ويشير الشهيد مطهري إلى أنَّ التوسُّل الصحيح يوقظ القوى الكامنة في الإنسان وينقذه من اليأس الذي هو أكبر عائق تربوي[1].

٣. **تلطيف العواطف ونبذ العنف في الشخصية:** يرتبط التوسُّل عادةً برقَّة القلب والدمع والارتباط الوجداني، مما يؤدي تربوياً إلى «تلطيف الفطرة». فالإنسان الذي يألف التوسُّل والبكاء على مصاب أولياء الله، يتعامل برأفة ولين أكثر في علاقاته الاجتماعية. ويؤكِّد هذا المصدر أنَّ التوسُّل يزيل «قساوة القلب» التي تعد حجر الأساس للكثير من الانحرافات التربوية[2].

٤. **إيجاد الحياء والرقابة الداخلية:** يخلق التوسُّل نوعاً من «الحضور» الدائم؛ فالفرد الذي يداوم على التوسُّل بالمعصوم

(١) مرتضى مطهري: عشرون خطاباً، ص٢٨٢.

(٢) محمد تقي مصباح يزدي: نحو بناء الذات، ص١٠٨.

يشعر بنوع من الحياء أمام حضرته. هذا الشعور يعمل كرقيب داخلي أقوى من أي عامل خارجي (كالقانون)، فيزجره عن الذنوب والعثرات التربوية[1].

الاقتداء بالإنسان الكامل في العلوم التربوية:

يُعد مفهوم الاقتداء من الركائز الأساسية في علوم التربية وعلم النفس، حيث يقوم على مبدأ فطري واجتماعي مفاده أنَّ الإنسان يشكل سلوكه وقيمه عبر ملاحظة ومحاكاة «النماذج» (كالوالدين والمعلمين والشخصيات البارزة).

هناك رؤيتان بارزتان في هذا السياق:

في علم النفس الحديث (نظرية التعلم الاجتماعي): يُعدُّ «ألبرت باندورا» الشخصية الأبرز هنا، حيث يرى أنَّ الجزء الأكبر من التعلم البشري لا يتم عبر التجربة المباشرة (الخطأ والصواب)، بل عبر «الملاحظة» لسلوك الآخرين ونتائجه. ويوضح باندورا كيف تقوم النماذج بجذب انتباه المتعلم وتفعيل عمليات «التمثيل الذهني» لديه، مما يؤدِّي إلى إعادة إنتاج

(١) عبد الله جوادي آملي: مبادئ الأخلاق في القرآن، ص٢٢٠.

السلوك[1].

في التربية الإسلامية: يتجاوز الاقتداء مجرد التقليد الظاهري ليصل إلى محاكاة «الإنسان الكامل» (الأنبياء والأئمة عليهم السلام)، وهو ما يجعل التوسُّل عملية تربوية مستمرة لتهذيب السلوك وترقية النفس.

التوسُّل من منظور التربية والتعليم الإسلامي (نموذج الكمال الإنساني):

تُعرف النمذجة في العلوم التربوية ذات التوجه الإسلامي بـ «التربية بالقدوة». ففي هذه الرؤية، يحتاج الإنسان للوصول إلى الكمال إلى «أسوة»، وقد قدَّم القرآن الكريم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بوصفه «أسوة حسنة»، وهي أعلى مستويات الكمال البشري.

يشير الدكتور باقري في مبحث الأساليب التربوية إلى «منهج الاقتداء بالأسوة»، مبيناً كيف أنَّ تقديم نموذج عيني للكمال يحول العملية التربوية من مفاهيم مجردة إلى حقائق عملية[2].

(١) ألبرت باندورا: نظرية التعلم الاجتماعي، ص٣٥.

(٢) خسرو باقري: نظرة ثانية في التربية الإسلامية، ج١، ص١٨٤.

منهج الاقتداء بالأسوة (الربط بين النظرية والتطبيق):

١. **تجسيد المعايير**: يصعب على الذهن البشري، خاصة في سن الطفولة والمراهقة، الارتباط بالمفاهيم المجردة (كالصدق أو الشجاعة). القدوة أو الأسوة تحوِّل هذه المفاهيم من الحالة الذهنية إلى الحالة العينية والسلوكية. فالمعلم حين يلتزم بالنظام في حضوره وتصحيحه للأوراق، يعمل بقوة أكبر من أي خطابة.

٢. **توفر القدوة وقربها**: يؤكد باقري على مبدأ «الإمكانية»، فالقدوة لا ينبغي أن تُقدم كشخص بعيد المنال بحيث يشعر المتعلم باليأس من الوصول إليه. الأسوة يجب أن تكون «بشراً مثلكم». فإذا قُدمت ككائن ما ورائي منزَّه عن أي جهد بشري، سيتوقف التلميذ عن المحاولة.

٣. **الرابطة العاطفية**: يتعمق الاقتداء عندما تُبنى «علاقة عاطفية» بين المربي والمتعلم، فالإنسان يقتدي بمن يحب ويثق به.

التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام كعملية تعلم بالنمذجة:

١. **أصل الاقتداء والتعلم (من الإنسان الكامل)**: التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام هو اتصال بـ «أكمل النماذج البشرية»، وهذا

ينسجم مع نظرية التعلم الاجتماعي لألبرت باندورا. ويؤكد الشهيد مطهري أنَّ روح الإنسان تحتاج إلى «الإرادة والحب»، فالمودة لكمال مجسد (أهل البيت عليهم السلام) تجعل صفات ذلك الأنموذج تنفذ إلى جوهر المتعلم[1].

٢. **أصل المحبة والارتباط الوجداني (التربية النزوعية)**: التربية القائمة على «الحب» هي الأكثر استدامة. فحين يتوسل الفرد بأهل البيت عليهم السلام، فإنَّه يبني رابطة عاطفية عميقة تجعله يبتعد عن المعاصي التي تؤذي محبوبه. ويشير آية الله جوادي آملي إلى أنَّ التوسُّل طريق لـ «تزكية النفس» عبر الاتصال بمنبع الطهارة، مما يخلق دافعاً داخلياً لتغيير السلوك[2].

٣. **تعزيز الكفاءة الذاتية والأمل (الصحة النفسية)**: يمنح التوسُّل الفرد شعوراً بوجود «ركن شديد» يستند إليه، مما يمنع اليأس ويضمن الصحة النفسية للمتربي. يوضح العلامة الطباطبائي في تفسير آية الوسيلة أنَّ حقيقة التوسُّل هي إقامة رابطة معنوية بين ذلة الخلق وعزة الخالق عبر وسائط الفيض، مما

(١) مرتضى مطهري: التعليم والتربية في الإسلام، ص١٦٥.

(٢) جوادي آملي: مراحل الأخلاق في القرآن، ج١١، ص٣٣٢.

يجبر الفقر الوجودي للإنسان[1].

٤. **الدور التربوي للأدعية والزيارات**: متون الزيارات (كالجامعة الكبيرة) هي دورة كاملة في «الأنثروبولوجيا» و«الأنطولوجيا»، تقوم هندسة ذهن المتعلم بشكل غير مباشر[2].

الخلاصة والنتائج:

١. الربط المنظومي بين «العلة المادية» و«العلة الغائية»: يتعلم المتربي أنَّ الوصول إلى الكمال يتطلب اتباع المسار الذي رسمه الله عبر الهداة (الوسائل)، مما يبعده عن التمركز حول الذات.

٢. أداة النمذجة السلوكية: التوسُّل يفعِّل عملية «التماهي» مع المعصومين عليهم السلام، مما يحول الفضائل المجردة إلى قوالب عينية يمكن الوصول إليها عبر «الحب والولاء»، وهو أقوى محرك لتغيير السلوك.

٣. الركيزة النفسية في مواجهة الأزمات الوجودية: يخفف التوسُّل من «القلق الوجودي» ويرفع مستوى المرونة النفسية، كونه

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص٣٢٨.

(٢) جوادي آملي: أدب وفناء المقربين، ج١، ص٨٢.

نوعاً من «الأمل الفعال» الذي يمنع التوقف والجمود في مسيرة التربية.

النتيجة النهائية: التوسُّل في النظام التربوي الإسلامي ليس هروباً من المسؤولية، بل هو استثمار ذكي لتراتبية الوجود لتسريع عملية بناء الذات والتقرب إلى الله، محققاً توازناً دقيقاً بين «الجهد الفردي» و«الفيض الولائي».

الفصل الثالث:
آثار وبركات التوسُّل في المصادر الإسلامية

تحليل المكانة المعرفية للتوسل في الرؤية الكونية الدينية:

تقوم العلاقة بين الخالق والمخلوق في النظام الأنطولوجي الإسلامي على أساس الفيض الإلهي المستمر. ورغم أنَّ الله سبحانه ﴿**أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾، إلَّا أنَّ السنة الإلهية قضت بأن تجري أمور العالم عبر الأسباب والوسائط. ومن هنا، يعدُّ «التوسل» - بمعنى التمسك بوسيلة للتقرب من الساحة القدسية الربوبية - أحد المفاهيم الجوهرية في المنظومة الفكرية للكتاب والسنة.

التوسُّل لغةً هو التقرب برغبة، وفي الاصطلاح الكلامي هو الاستشفاع إلى الله بذوات مقدسة لها وجاهة وعزة عنده سبحانه. وتنبثق ضرورة هذا البحث من كون الإنسان، نظراً لمحدوديته الوجودية وما ران على قلبه من غبار الذنوب، يحتاج إلى وسائط

هم مظهر لأسماء الله الحسنى وتجسيد للكمال الإنساني المطلق.

إنَّ أهل بيت النبي عليهم السلام هم المصداق الأتم لـ «الوسيلة» التي دعا الله المؤمنين لابتغائها بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[1]. ولا تقتصر آثار التوسُّل بهم على حل المعضلات المادية فحسب، بل تمتد لتشمل التحول الروحي، والثبات على الإيمان، وتصفية الباطن، والوصول إلى مقام الرضا[2].

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٢) انظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مادة (وسل). الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص٣٢٨. جوادي آملي: أدب فناء المقربين، ج١، ص٢٤-٣٠.

آثار وبركات التوسُّل الفردية:

١. الهداية والنجاة من الضلال: الأثر الأول للتوسل هو الاستقرار على صراط الهداية المستقيم. فوفقاً لحديث «الثقلين» المتواتر، يعدُّ التمسك بالعترة إلى جانب القرآن السبيل الوحيد للحماية من الغواية[١].

٢. القرب الإلهي وقبول العبادات: التوسُّل بالأئمة عليهم السلام شرطٌ لكمال العمل وقبوله، فهم «باب الله» الذي لا يُؤتى إلَّا منه. كما ورد في الزيارة الجامعة: «**مَنْ أَرَادَ اللهَ بَدَأَ بِكمْ... وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكمْ**»[٢].

٣. السكينة النفسية وكشف الكروب: من منظور علم النفس الديني، يؤدي التوسُّل إلى خفض القلق وزيادة الأمل. وقد وُصف أهل البيت عليهم السلام بأنَّهم «سفن النجاة» التي تمنح القلوب طمأنينة وسط تلاطم الأزمات. حتى قال الإمام الشافعي عن التوسُّل بالإمام الكاظم عليه السلام: «قبرُ موسى الكاظم تريـاقٌ مجرَّب»[٣].

(١) الحاكم النيشابوري: المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١١٠.

(٢) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١١.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج١٢، ص٩١.

٤. الشفاعة في يوم الجزاء: من أسمى آثار التوسُّل نيل الشفاعة يوم القيامة. وهذا الأثر مذكور بفيض في مصادر الفريقين، كالتوسُّل بالكلمات (أسماء أهل البيت عليهم السلام) لقبول توبة آدم عليه السلام، أو ما ورد في الآية (٦٤) من سورة النساء حول مشروعية المجيء للرسول صلى الله عليه وآله ليستغفر للمذنبين[1].

الآثار الاجتماعية للتوسل بأهل البيت عليهم السلام:

تتجاوز آثار التوسُّل الجانب الفردي لتشكل ركيزة التماسك، والاستقامة، وصياغة الهوية في المجتمعات الإسلامية. وسنتناول أهم التداعيات الاجتماعية لهذه السنة الحسنة استناداً إلى المصادر المعتبرة.

(١) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور، ج١، ص٣٢٤.

الفصل الرابع:
الآثار الفردية والاجتماعية للتوسل بأهل البيت عليهم السلام

الإنسان في مسير الحياة المليئة بالصعاب، يعيش دوماً بين الخوف والرجاء، باحثاً عن ركن وثيق يأوي إليه بروحه المتعبة أمام تلاطم الأحداث. إنَّ حقيقة «التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام» ليست مجرد طلب بسيط لقضاء الحوائج المادية، بل هي رابطة قدسية واستراتيجية معنوية تربط بين وجود الإنسان المحدود ومنبع الفيض الإلهي اللامحدود.

أبرز الآثار الفردية للتوسل:

١. **السكينة الداخلية والتحرر من القلق:** يمنح التوسُّل الفردَ شعوراً بوجود سندٍ غيبي في الشدائد، مما يحول الخوف إلى طمأنينة. يذكر العلامة الطباطبائي في ظلال آية الوسيلة أنَّ حقيقة التوسُّل هي إيجاد رابطة معنوية بين علم العبد وعمله وبين ساحة القدس الإلهي، وثمرتها المباشرة هي ثبات

القلب[1].

٢. **تعزيز الأمل ومحاربة اليأس**: اليأس من روح الله من الكبائر، والتوسُّل بالأولياء نافذة أمل تخرج الفرد من المآزق الذهنية. يصف الإمام الصادق عليه السلام الأئمة بأنَّهم «الحبال المتصلة» بين السماء والأرض، والتمسك بهذا الحبل يمنع السقوط في هاوية القنوط[2].

٣. **بناء الذات والتهذيب الأخلاقي (الأثر التربوي)**: المتوسل يرى نفسه في محضر نماذج الكمال، وهذا يخلق رقابة داخلية تؤدي إلى الحياء وترك الذنب. إنَّ معرفة مقام الإمام تدفع الفرد تلقائياً للترفع عن الرذائل ليليق بالانتساب إلى تلك العترة الطاهرة[3].

٤. **سعة الصدر وزيادة القدرة الوجودية**: التوسُّل يجعل رؤية الإنسان تتجاوز الأفق المادي الضيق، ليرى الكون كله تحت التدبير الإلهي. ورد في توقيع الإمام المهدي عجل الله فرجه: «**وأمَّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا...**»، والرجوع للولاية

(١) تفسير الميزان: العلامة الطباطبائي، ج٥، ص٢٨٢.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ج٩١، ص٢٢.

(٣) الشيخ الكليني: أصول الكافي، ج٢، ص٤٧١.

في الأزمات يمنح المؤمن سعة في الصدر لاستيعاب المصاعب دون ضيق أو ضجر[1].

النتيجة: التوسُّل هو نقطة تلاقي فقر العبد وغنى الخالق عبر «الإنسان الكامل»، مما يحول الفرد من كائن معزول وضعيف إلى إنسان ممتلئ بالأمل والإرادة والسكينة.

(١) الشيخ الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٤٨٥.

الآثار الأسرية للتوسل بأهل البيت عليهم السلام:

يعمل التوسُّل في كيان الأسرة بوصفه «نظاماً وقائياً» يضبط العلاقات بين أفرادها على مدار الأخلاق والمعنوية:

١. **إيجاد المودة والانسجام العاطفي**: التوسُّل الجماعي (كالمجالس البيتية) يربط قلوب أفراد الأسرة بمحبوب واحد. ويؤكد الشيخ مكارم الشيرازي أنَّ المودة لذوي القربى هي أصل كل مودة حلال ومستقرة، والأسرة التي تسير في هذا المدار تُصان من الفرقة[١].

٢. **البركة في الرزق واستقرار المعيشة**: في الثقافة الروائية، يعد التوسُّل بمعدن الوحي مفتاحاً لفتح أبواب الخير المادي وجلب الرزق الحلال المبارك. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ البيت الذي يُذكرون فيه، تُوكل به الملائكة لتستغفر لأهله وتُجرى عليه البركات[٢].

٣. **التربية المعنوية ونمذجة السلوك للأبناء**: التوسُّل هو أذكى وسيلة غير مباشرة لنقل القيم، فالأبناء الذين يشاهدون

(١) تفسير الأمثل: ج١٧، ص٤٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

توسل الوالدين ينمون وفي روعهم مفهوم «السند المعنوي»، مما يحصنهم من الانحرافات. وقد ركَّز الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام على التمسك بحبل الله وأوليائه كأقوى رابط لحفظ الجيل[1].

٤. **دفع البلاء ونزول السكينة**: التوسُّل هو «الحصن الإلهي» الذي يؤمن الأسرة ضد الحوادث والاضطرابات. يشير الشيخ الكليني في الكافي إلى أنَّ التوسُّل والدعاء من مسلك المعصومين هو «ترس المؤمن» أمام البلايا التي قد تزلزل كيان الأسرة[2].

الآثار الاجتماعية للتوسل بأهل البيت عليهم السلام:

في تبيين النسبة بين الدين والمجتمع، لا تُعدُّ عقيدة «التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام» مجرد فعل عبادي فردي أو نجوى باطنية بين العبد ووسائط الفيض الإلهي، بل إنَّ هذه الحقيقة المعنوية تمتلك أبعاداً واسعة في ساحة الحياة الجمعية والعلاقات الاجتماعية. إنَّ التوسُّل في طبقاته العميقة هو العملية التي تربط «الفرد» بـ

(١) ابن شعبة الحراني: تحف العقول، ص٢٦٣.

(٢) الشيخ الكليني: كتاب الكافي، ج٢، ص٤٩٩.

«الأمة»، وتخلق مركز ثقل قدسي يحول تشتت القلوب والأفكار إلى وحدة منسجمة.

من المنظور السوسيولوجي (الاجتماعي)، يعدُّ التوسُّل بالذوات المقدسة منبعاً لإنتاج «رأس المال الاجتماعي المعنوي». فعندما يبحث المجتمع عن قيمه ونماذج حياته في قمم الفضيلة (أهل البيت عليهم السلام)، تتشكل «هوية مشتركة» تقوم على المحبة والإيثار. هذه الرابطة الولائية لا تسكن الآلام الفردية فحسب، بل هي سرُّ استقامة المجتمع أمام الأزمات، وتعزيز روح التعاون، وإعادة إنتاج الأخلاق العامة[1].

١. **الانسجام الإسلامي ووحدة الكلمة:** يعدُّ التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام محوراً مشتركاً للمحبة بين عموم المسلمين، وعاملاً لربط القلوب وتقريب المذاهب. إنَّ «مودة ذوي القربى» التي أكَّد عليها القرآن هي المظلة التي تجمع الكتل البشرية المختلفة حول مركزية قدسية واحدة. فهم كما ورد

(١) انظر: العلامة الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٤، ص٩٢ (بحث المرابطة الاجتماعية). آية الله جوادي آملي: المجتمع في القرآن، ص١١٥. الشهيد مرتضى مطهري: الجاذبية والدافعة للإمام علي عليه السلام، ص٨٥.

في الأثر: «هُم سُفُنُ النجاةِ وأمانُ الأُمَّةِ من الاختلاف»[1].

٢. **الاستقامة الاجتماعية وروح المقاومة (ثقافة الإيثار):** إنَّ التوسُّل بنماذج كالإمام الحسين عليه السلام جعل المجتمعات الإسلامية عصية على الاستبداد والاستعمار عبر التاريخ. هذه الرابطة المعنوية تجذِّر «ثقافة الشهادة» ومقارعة الظلم كفعل اجتماعي مستدام. ويبين الباحثون كيف أنَّ ذكر المصائب والتوسُّل بسيد الشهداء عليه السلام أبقى جذوة القيام ضد البغي حية في وجدان الأمة[2].

٣. **بسط العدالة وإغاثة المحرومين:** ارتبطت ثقافة التوسُّل دوماً بـ «النذر» و«الصدقة». فطقوس التوسُّل (كموائد الإطعام والمواكب) خلقت أكبر شبكة للخدمات الاجتماعية الطوعية، حيث تتقلص الفوارق الطبقية ويُعاد توزيع الثروة لصالح المحتاجين. إنَّ التوسُّل عبر التاريخ كان يترافق مع «المواساة» للفقراء والمساكين، وهو ما يتجلى اليوم في الهيئات والمؤسسات الدينية[3].

(١) ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ص١١.

(٢) محمد مهدي شمس الدين: ثورة الحسين عليه السلام في الوجدان الشعبي، ص٢٤٨.

(٣) الشيخ المفيد: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص٢٨.

٤. **الأمن النفسي والصحة العامة للمجتمع**: التوسُّل الجماعي في قالب الأدعية والزيارات (مثل دعاء الندبة أو المشي الأربعيني) يخلق نوعاً من «الدعم الاجتماعي» الذي يقلل من معدلات اليأس والجريمة في المجتمع. ويؤكد العلامة الطباطبائي في بحث «رابطوا» أنَّ الرابطة المعنوية للمجتمع بالولاية هي صمام الأمان لصيانة كيان الاجتماع من الانحرافات الأخلاقية[1].

الرموز الاجتماعية للتوسل (الأربعين نموذجاً):

إنَّ تحليل الرموز الاجتماعية للتوسل، خاصة في ظاهرة «الأربعين الحسينية» الفريدة، يظهر التجلي العيني لربط الإيمان القلبي بالحركات الصانعة للحضارة، حيث يتحول التوسُّل من استغاثة فردية إلى زحف مليوني يجسد قيم الأخوة والخدمة والتفاني.

(١) انظر: تفسير الميزان: ج٤، ص٩٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٧٢.

القسم السابع:
التوسُّل، الوحدة وبناء الحضارة
(رؤية حديثة)

الفصل الأول: كربلاء..
منبع التوسُّل وتجلِّي العطش المعنوي

كربلاء وعاشوراء وجهان لعملة قدسية واحدة، فكربلاء هي بؤرة جوشان التوسُّل، وعاشوراء هي لحظة انفجار النور وتجلِّي العطش المعنوي. إنَّ عاشوراء تتجاوز حدود الزمان، فهي «ميقاتٌ» أبدي، يتراجع فيه عطش الجسد لتصل رغبة الروح في الاتصال بالحق إلى ذروة كمالها. في ذلك النصف من النهار الذي صنع التاريخ، انتصر الدم على السيف ليثبت أنَّ التوسُّل بالعتبة الحسينية هو حبل نجاة الإنسان من غرقاب الحيرة والعبثية. لقد علمتنا عاشوراء أنَّ أسمى تجليات المعنوية تكمن في الفناء عن الذات للوصول إليه سبحانه.

أمَّا كربلاء، فليست مجرَّد واقعة في قلب التاريخ، بل هي جغرافيا التوسُّل التي لا تعرف الحدود، وتجلِّي الروح التي تغلي في جسد الزمان. هذه التربة هي نقطة التلاقي بين «فقر الإنسان» و«غنى المعشوق»، حيث يتسامى «العطش» ليتجاوز معناه المادي ويتحول إلى اشتياق معنوي لبلوغ الحقيقة المحضة.

في كربلاء، ليست الدموع علامة ضعف، بل هي أداة وصل بمعدن العز الذي لا يزول. وكل من يقصد هذه الرحاب، يدرك أن التوسُّل بسيد الشهداء عليه السلام هو أقصر الطرق لإرواء الأرواح الظامئة التي تبحث في صحراء المادية القاحلة عن جرعة من نور ومعنى.

تحليل ماهية «الشوق والعطش» إلى كربلاء (رؤية كلامية):

قراءة في الحديث النبوي: «**إِنَّ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ حَرَارَةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَبْرُدُ أَبَداً**».

إنَّ تحليل ماهية هذا الشوق من المنظور الكلامي يذهب إلى أبعد من كونه مجرد عاطفة عابرة، بل هو «جذبٌ وجودي» يضرب بجذوره في فطرة الإنسان وعهده الألستي. وفيما يلي نبين

التحليل العلمي والكلامي لهذا الموضوع:

١. **التحليل الكلامي لحديث «حرارة لا تبرد»**: هذا الحديث الشريف هو المفتاح لفهم كنه هذا الشوق:

عنصر «الحرارة» (التكوين في مواجهة التشريع): من المنظور الكلامي، هذه الحرارة أمرٌ «تكويني»، أيْ: أنَّ الله سبحانه أودع في جبلَّة المؤمن ميلاً يجعل رد فعله تجاه واقعة عاشوراء حياً وفاعلاً، وهذه الحرارة هي المحرك الأساسي لعملية التوسل[١].

دلالة قيد «الأبدية»: تشير كلمة «أبداً» إلى أنَّ هذا الشور يتسامى فوق الزمان والمكان. وفي الكلام الإسلامي، كل ما نُسب إلى «وجه الله» فهو باقٍ ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ**﴾. ولما كان قيام عاشوراء خالصاً لذات الحق، أصبح الاشتياق إليه غير قابل للفناء.

٢. **ماهية العطش المعنوي وعلاقته بالتوسل**: في الرؤية الكلامية، «العطش إلى كربلاء» هو استجابة لحاجة الروح للعودة إلى أصلها. والتوسُّل هنا يعني «الاستعانة بالكمال لجبر النقص»:

(١) آية الله البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج١٢، ص٥٥٤.

يرى المتكلمون أنَّ الأئمة عليهم السلام هم «وسائط الفيض» الإلهي؛ والعطش المعنوي هو إدراك الإنسان لفقره وحاجته لهذه الواسطة. وبسبب اجتماع أسمى الصفات الإنسانية (الصبر، الإيثار، التوحيد) في كربلاء، أصبحت هي المركز الأقوى لهذا الارتباط (التوسل).

هذا الشوق القلبي ينقل المؤمن من ساحة «العاطفة» إلى ساحة «المعرفة» ومن ثم إلى ساحة «العمل» (التوسُّل والاتباع)[1].

الخلاصة: إنَّ هذه «الحرارة التي لا تبرد» هي المغناطيس الحسيني الذي تنبأ به المعصوم. ومن وجهة نظر كلامية، التوسُّل بكربلاء (أبطال كربلاء) هو حركة من «الكثرة» (ضجيج الدنيا) نحو «الوحدة» (شهود التجلِّي الإلهي في الميدان). وهذا العطش لا يرتوي إلَّا بالاتصال بمنابع عاشوراء؛ لأنَّه وفقاً لكلام الوحي، بذكر الله (وما فني في الله) تطمئن القلوب.

تحليل ماهية «عطش الزيارة» بوصفه توسلاً استراتيجياً مستمراً:

إنَّ تحليل شوق الزيارة كضرورة للحياة المعنوية يتطلب

(١) المحدث النوري: مستدرك الوسائل، ج١٠، ص٣١٨.

غوصاً دراماتيكياً في الطبقات الكلامية والحديثية، فالزيارة في الفكر الشيعي ليست مجرد فعل مستحب، بل هي «نظام تربوي ورابطة وجودية» تضمن استمرار حياة المؤمن الروحية.

١. ماهية «عطش الزيارة»:

أبعد من العاطفة: إنَّ الاشتياق لكربلاء هو تجلٍ لـ «الميثاق الألستي». يوضح الإمام الصادق عليه السلام أنَّ الله خلق قلوب الشيعة من طينة الأئمة عليهم السلام، لذا فإنَّ السنخية الوجودية هي سرُّ هذا الانجذاب الدائم.

الزيارة حضور: الشوق الدائم يعني أنَّ المؤمن في مدار جاذبية الإمام، مما يمنع سقوطه في «الغفلة» التي هي الموت المعنوي.

الزيارة حياة: كربلاء هي «الماء المعين»، وكما يحتاج الجسد للماء، يحتاج روح الشيعي إلى «أكسجين عاشوراء» لبقاء هويته.

٢. التحليل الاستنادي من المصادر الروائية:

الزيارة شرط كمال الإيمان: ينقل ابن قولويه في كامل الزيارات: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ حَجَّ دَهْرَهُ ثُمَّ لَمْ يَزُرِ الْحُسَيْنَ عليه السلام لَكَانَ**

تَارِكاً حَقّاً مِنْ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ رَسُولِ اللهِ». وهذا يدل على أنَّ الحياة المعنوية بلا كربلاء هي حياة ناقصة.

الزيارة إكسير الرزق المعنوي: يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**مُرُوا شِيعَتَنَا بِزِيَارَةِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَإِنَّ إِتْيَانَهُ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ وَيَمُدُّ فِي الْعُمُرِ...**». والرزق هنا يشمل رزق المعرفة واليقين[1].

الحرارة القلبية وجلاء الروح: يرى الملا حبيب الله الكاشاني أنَّ هذا الشوق نارٌ تحرق الذنوب وتصقل الروح، كما يُصقل الحديد في كوره (حرارة الحسين عليه السلام)[2].

٣. الزيارة كـ «توسل استراتيجي» للهوية الشيعية:

إنَّ هذا العطش ضروري لأنَّه يمثل:

تجديد البيعة: مع كل نبضة شوق، يجدد المؤمن ميثاق «**هيهات منا الذلة**».

التطهير النفسي: الدموع والاشتياق تدفع السموم الروحية، «**كل عين باكية يوم القيامة إلَّا عين بكت على الحسين عليه السلام**».

(١) العلَّامة المجلسي: بحار الأنوار: ج٩٨، ص٤.

(٢) تذكرة الشهداء: ص٨٢.

البناء الاجتماعي: هذا العطش الفردي يتحول في «الأربعين» إلى محرك جمعي للأمة.

كربلاء.. مدرسة التوسُّل في أحلك الظروف:

توسل أصحاب الحسين عليه السلام بذاته المقدسة يوم عاشوراء: لم يكن توسل الأصحاب بالإمام مجرد إبداء للولاء، بل كان «شهوداً معرفياً»، فقد رأوا فيه «وجه الله» والواسطة للقرب من الخالق، ففنيت إرادتهم في إرادته.

تجلي التوسُّل في كلام «سعيد بن عبد الله الحنفي»: في ليلة عاشوراء، جسَّد سعيد مفهوم الفناء في الإمام بقوله: «والله لو علمتُ أني أُقتل، ثم أحيا، ثم أُحرق حياً... ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك». وهذا هو عين التمسك بحبل الله المتين[1].

صلاة الظهر، التوسُّل بـ «الفداء»: حين وقف الأصحاب صدوراً للسهام ليصلي الإمام عليه السلام، كان ذلك أرقى أشكال التوسُّل العملي لحفظ «حقيقة الصلاة» المتجلية في وجود الإمام. وسعيد الحنفي، وهو يلفظ أنفاسه، لم يطلب إلَّا توقيع الإمام: «أوفيتُ يا

(١) انظر: وقعة الطف: ص١٩٧. تاريخ الطبري: ج٥، ص٤١٩.

بن رسول الله؟»[1].

الأراجيز، بيان عقدي في التوسُّل: كانت أراجيزهم تبياناً لكلامهم في التوسُّل بالولاية، كقول ابن جنادة:

«أَمـيري حُـسَـيْنٌ وَنِـعْـمَ الأَمـيرُ
سُرُورُ فُـؤادِ الْـبَـشـيرِ الـنَّـذيرِ»

فكلمة «نعم الأمير» هي استغاثة بمقام الولاية المطلقة لنيل الفلاح[2].

الاستغاثة بالولاية لحظة الشهادة: كان الأصحاب يجدون رؤوسهم على حجر الإمام عليه السلام عند النزع الأخير، وهذا الحضور هو رمز استجابة توسلهم لـ «حُسن العاقبة». كما في قصة «واضح الرومي» الذي تبسم قائلاً: «مَنْ مِثْلي وَابْنُ رَسُولِ اللهِ واضِعٌ خَدَّهُ عَلى خَدِّي»[3].

العهد الجماعي ليلة عاشوراء: قول زهير بن القين: «والله لوددتُ أني قُتلتُ ثم نُشرتُ... وأنَّ الله يدفع بذلك عنك وعن

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ص١٦٤.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ج٤، ص١٠٤.
(٣) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٣٠.

هؤلاء الفتية من أهل بيتك». وهذا هو التجسيد الأسمى لآية ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾[1].

الخلاصة: توسل الأصحاب في عاشوراء كان «توسلاً في الفناء»، فقد أدركوا أنَّ الحسين عليه السلام هو «**باب الله الذي منه يُؤتى**»، فرأوا أنَّ بذل الأرواح دونه هو عين تذوق طعم التوحيد.

كيف حوَّلت كربلاء مفهوم «الوسيلة» من بحثٍ نظري إلى ملحمة عينية؟

لم يكن توسل أصحاب الإمام الحسين عليه السلام بذاته المقدسة مجرد إبداء للولاء العاطفي، بل كان «شهوداً معرفياً»، فقد أبصروا الإمام بوصفه «وجه الله» والواسطة الموصلة إلى حضرة الربوبية. وفي الحقيقة، فني الأصحاب في إرادة الإمام عليه السلام، فكان فناؤهم ذلك عيناً للفناء في ذات الحق.

ونستعرض هنا المستندات التحليلية لهذا التوسُّل والارتباط القدسي:

(١) الإرشاد: ج٢، ص٩٢.

١. تجلي التوسُّل في منطق «سعيد بن عبد الله الحنفي»:

يعد خطاب سعيد بن عبد الله في ليلة عاشوراء من أنقى صور التوسُّل بالذات المقدسة للإمام، إذ جعل بقاءه رهناً بوجود الإمام وفدائه:

«والله لو علمتُ أني أُقتل، ثم أحيا، ثم أُحرق حياً، ثم نُذرّ بي، يُفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك».

تعكس هذه العبارة أنَّ سعادته الأبدية وبقاءه الحقيقي يكمنان في «ملازمة الإمام»، وهو الجوهر الحقيقي للتوسل بحبل الله[1].

٢. صلاة ظهر عاشوراء، التوسُّل بـ «الفداء»:

حين حان وقت الصلاة، جعل الأصحاب صدورهم دروعاً لحماية الإمام عليه السلام. هذا السلوك هو أعلى مستويات التوسُّل العملي، أي الحفاظ على «حقيقة الصلاة» المتجلية في وجود الإمام المعصوم.

(١) انظر: أبو مخنف: وقعة الطف، ص١٩٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٤١٩.

وقف سعيد بن عبد الله أمام الإمام يتلقى السهام ببدنه، وفي لحظاته الأخيرة سأل: «أوفيتُ يا بن رسول الله؟».

لقد ظلَّ يطلب التوثيق والقبول من «واسطة الفيض» حتى في سكرات الموت، ليضمن أنَّ قربه من الله قد خُتم بإمضاء الإمام[1].

٣. الأراجيز، بيانٌ عقدي في التوسُّل بالولاية:

كانت أراجيز الأبطال في الميدان تبياناً لفظياً لعقيدة التوسُّل لديهم، حيث عرفوا هويتهم بـ «دين الحسين» لا بالقبيلة:

«أَمـيري حُـسَـيْنٌ وَنِـعْـمَ الأَمـيرُ
سُرُورُ فُـؤادِ الْـبَـشيرِ الـنَّـذيرِ»

إنَّ وصف «نعم الأمير» هو استغاثة بمقام الولاية المطلقة للإمام كطريق وحيد لنيل الخلاص والفلاح[2].

٤. استغاثة الأصحاب بالولاية عند الاستشهاد:

كان حضور الإمام عند رؤوس أصحابه في لحظة الاستشهاد

(١) سيد بن طاووس: اللهوف في قتلى الطفوف، ص١٦٤.
(٢) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص١٠٤.

يمثل استجابة لتوسلهم بـ «حسن العاقبة». يُنقل عن «واضح الرومي» أنَّه تبسَّم عند موته قائلاً:

«مَنْ مِثْلي وَابْنُ رَسُولِ اللهِ واضِعٌ خَدَّهُ عَلى خَدِّي».

هذا هو ذروة التوسُّل بمقام «ذبيح الله»، حيث يصل الزائر (التابع) إلى وصال المعبود عبر القناة المقدسة (الإمام)[1].

٥. العهد الجماعي، التجسيد العملي لآية الوسيلة:

في ليلة عاشوراء، أكَّد الأصحاب مجتمعين على الوفاء، وهو التجسيد الحرفي لقوله تعالى: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾. قال زهير بن القين رضي الله عنه:

«والله لوددتُ أني قُتلتُ ثم نُشرتُ ثم قُتلتُ... وأنَّ الله يدفع بذلك عنك وعن هؤلاء الفتية من أهل بيتك»[2].

نستنتج من ذلك كلِّه إنَّ توسل الأصحاب في عاشوراء كان من نوع «التوسُّل في الفناء»؛ فقد ارتقوا بمعرفتهم ليدركوا أنَّ الحسين عليه السلام هو «**باب الله الذي منه يُؤتى**». وبذلك، صار بذل

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ج٤٥، ص٣٠.

(٢) الشيخ المفيد: الإرشاد، ج٢، ص٩٢.

أرواحهم بين يديه هو عين تذوُّق طعم التوحيد الخالص.

تحوُّل التوسُّل إلى «ملحمة عينية» في كربلاء:

لقد حدث تحول التوسُّل من بحث نظري إلى «ملحمة عينية» في كربلاء، تحديداً في اللحظة التي شهد فيها أصحاب الحسين عليه السلام وحدةً بين أرواحهم ووجود الإمام. هناك، لم يعد التوسُّل مجرد «طلب»، بل صار «امتزاجاً». ويمكننا تحليل هذه الملحمة العينية استناداً إلى وثائق ليلة عاشوراء ويومها كالآتي:

١. التوسُّل في (ليلة عاشوراء):

بدأت الملحمة العينية للتوسل عندما رفع الإمام عليه السلام البيعة عن أصحابه، فجاءت ردودهم لتؤكد أنَّ توسلهم به ليس لنيل «الجنة»، بل للوصول «إليه». يقول مسلم بن عوسجة بكلمات زلزلت كيان التاريخ:

«أَنَخلِّيكَ؟ وَبِمَ نَعْتَذِرُ إِلَى اللهِ في أداءِ حَقِّك؟... وَاللهِ لا أُفارِقُك حَتَّى أَطْعَنَ في صُدورِهِمْ بِرُمْحي...».

إنَّه يرى حق الله متجلياً في أداء حق الحسين عليه السلام. هذا هو

التوسُّل العملي؛ حيث الإمام هو «الطريق المحض» نحو الله[1].

٢. التوسُّل بـ «وجه الله» (ظهر عاشوراء):

تجلّي حقيقةِ التوسُّلِ في مَظهرِ «الفداءِ والذَّود»: لقد تجسَّدَت مَلحمةُ التوسّلِ العينيّةِ في أبهى صُوَرِها متمثِّلةً في مَقامِ «البذلِ والفِداء»، فبَدلاً من أن يبتغي الأصحابُ من إمامِهم نفعاً أو دفعَ ضرٍّ دنيويّ، جَعلوا نُحورَهم دونَ نَحره، وفَدوا أَرواحَهم لتقامَ «صلاةُ الإمام»، كما صنعَ بطلُ الطَّفِّ سعيد بن عبد الله الحنفي.

إذ انتصبَ قائماً أمامَ وليِّ اللهِ يَقيهِ بصدْرِه، حتى أثخنَتْه الجراحُ ورَشَقَه القومُ بـثلاثةَ عشرَ سَهماً، وفي رَمَقِه الأخيرِ شَخَصَ ببصرِهِ إلى وجْهِ الإمامِ عليه السلام قائلاً:

«أَوْفَيْتُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ؟» فأجابه الإمام: «**نعم، أنتَ أمامي في الجنة**».

هذه هي ذروة الملحمة، حيث يتوسل الزائر (سعيد) بالمزور (الإمام) ليختم بالقبول على تضحياته، فهو يرى الإمام «ميزان

(١) الشيخ المفيد: الإرشاد، ج٢، ص٩٢.

الأعمال»[1].

٣. الرجز، بيان التوسُّل الملحمي:

لم تكن أراجيز عاشوراء نصوصاً في كتب الكلام، بل كانت صرخة التوسُّل في قلب السيوف. يقول الفتى عمرو بن جنادة الأنصاري:

«أَمـيري حُـسَـيْنٌ وَنِـعْـمَ الأَمـيرُ
سُرُورُ فُـؤادِ الْـبَـشيرِ الـنَّـذيرِ»

باستخدام تعبير «نعم الأمير»، يعرِّف الفتى وجوده كله تحت ولاية الإمام. هذا التوسُّل يعني «نيل الهوية» في ظل المعصوم[2].

٤. أحضان الإمام، غاية التوسُّل العيني:

في اللحظات الأخيرة، يقع التوسُّل بمقام «ذبيح الله» بشكل فيزيائي مشهود، فكلما سقط شهيد، استغاث بالإمام ليأتي عند رأسه. كما حدث مع «جون» (المولى الأسود)، حين وضع الإمام عليه السلام خدَّه على خدِّه ودعا له: «**اللَّهم بيِّض وجهه وطيِّب**

(١) السيد بن طاووس: الملهوف (اللهوف)، ص١٦٤.
(٢) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص١٠٤.

ريحه».

تُظهر هذه المشهدية أنَّ توسل الأصحاب أثمر في لحظة الموت، فقد تمسَّكوا بـ «واسطة الفيض» ليرتقوا من التراب إلى الأفلاك[1].

ومن ذلك كلِّه نستنتج أنَّ أصحاب الحسين عليه السلام أثبتوا أنَّ التوسُّل ليس «ذكراً» على اللسان، بل هو «حضورٌ» يدفع الإنسان للوقوف بكل قامته أمام الباطل دفاعاً عن الحق (الإمام). في كربلاء، خرج التوسُّل من بطون الكتب وكُتب بالدم على الرمل: «الحسينُ وسيلةُ الله».

الرابط بين العطش الحسيني والشفاء: التوسُّل بالتربة والضريح:

التوسُّل بمقام «ذبيح الله» لنيل القرب الإلهي:

إنَّ دراسة التوسُّل بتربة وضريح الإمام الحسين عليه السلام بوصفه تقرباً من مقام «ذبيح الله»، تُعدُّ من أعمق المباحث الكلامية والعرفانية. ففي هذا الفضاء، لا يُنظر إلى «التراب» و«الحديد» كجمادات، بل كآيات ودلائل على الفناء الكامل للإنسان في ذات

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ج٤٥، ص٢٣.

الحق.

ونحلل هذه الحقيقة استناداً إلى المصادر الإسلامية الأصيلة:

١. **التبيين الكلامي لمقام «ذبيح الله» في كربلاء:** مقام «ذبيح الله» في الثقافة التوحيدية يعني التسليم المطلق لإرادة الحق. ورغم أنَّ هذا اللقب ارتبط ابتداءً بالنبي إسماعيل عليه السلام، إلَّا أنَّ الحسين عليه السلام هو «الذبح العظيم» الذي وصل قربانه إلى مرتبة الفعليَّة الكاملة.

فالتوسُّل بالضريح والتربة هو في جوهره تمسكٌ بمن لم يبقَ فيه أي أثر لـ «الأنانية»، بل صار وجوده كله «لله». لذا، فإنَّ التقرُّب منه هو عين التقرب من الله، وكما ورد: «**مَنْ أَرَادَ اللهَ بَدَأَ بِكمْ**».

٢. **قداسة التربة والضريح في ارتباطهما بالشهادة:** لماذا صار تراب كربلاء شفاءً وطريقاً للقرب؟ لأنَّ هذا التراب جُبل بدم «ذبيح الله». لقد قدِّست هذه التربة لا لجنسها، بل لمجاورتها لـ «خليفة الله».

أ- **السجود على التربة:** يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**السُجُودُ عَلَى**

تُرْبَةِ أَبِي عَبْدِ اللهعليه السلام **يَخْرِقُ الْحُجُب السَّبْعَ**». خرق الحجب يعني الوصول إلى القرب المحض. التوسُّل بهذه التربة هو «طريق مختصر» يرفع المصلي من الفرش إلى العرش؛ لأنَّها تضم عطر فداء «ذبيح الله»[1].

ب- **الضريح، باب الله ومهبط الملائكة:** ضريح الحسين عليه السلام هو مركز تجمع الأنوار الساطعة من مقام الذبيح. ورد في الروايات أنَّ الملائكة تزدحم لزيارته. التوسُّل بالضريح هو اتصال بهذه الشبكة النورية وتقرب من المقام الذي سُفك فيه «دم الله» (ثار الله) ليحيا التوحيد[2].

ج- **الشفاء في التربة، مكافأة الذبح العظيم:** يبيِّن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ الله عوَّض الحسين عليه السلام عن شهادته بثلاث: جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء تحت قبته. هذه الكرامات هي نتيجة مباشرة لمقام «الذبح»؛ فلأنَّه بذل كل شيء، جعل الله «إذن الفيض» في ترابه وضريحه[3].

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات، ص٢٧٨.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ج٩٨، ص٥٥.

(٣) الشيخ الطوسي: الأمالي، ص٣١٧.

إنَّ التوسُّل بهذه المظاهر المادية (التراب ومعدن الضريح) هو توسل رمزي ومعرفي بحقيقة وجود الإمام الحسين عليه السلام. فنحن من خلال هذه الوسائط، نستشفع بالساحة القدسية لمن استحق لقب «ذبيح الله»، ذاك الذي نال هذه المنزلة عبر التضحية المطلقة والإيثار الفريد.

التوسُّل بالحسين عليه السلام
كمحرك تاريخي للعدالة ومناهضة الظلم

التبرك بالتربة والدعاء تحت القبة: رؤية كلامية وعلمية:

إنَّ موضوع التبرك بتربة الإمام الحسين عليه السلام والدعاء تحت قبته الشريفة يستند إلى مبانٍ رصينة تجمع بين المنزع الاعتقادي والتحليل الفلسفي:

أولاً: التبيين الكلامي (رابط المادة بالمعنى):

في الكلام الشيعي، لا تمتلك الأشياء المادية أصالة ذاتية، بل تكتسب «البركة» (الخير الإلهي) عبر انتسابها إلى الله وأوليائه.

القدسية المكانية: تتغير الخصائص العرضية للأماكن بفعل الوقائع القدسية. تربة كربلاء، لامتزاجها بدم (ثار الله)، أصبحت وعاءً لسر الشفاء.

وعد الاستجابة: هذا مبني على الوعد الإلهي، ففي الروايات المتواترة، عوَّض الله الحسين عليه السلام عن شهادته بـ: «الأئمة من ذريته،

والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره»[1].

ثانياً: التبيين العلمي والفلسفي (أثر الوعي في المادة):

شعورية المادة: وفقاً للحكمة المتعالية (ملا صدرا) والفيزياء الحديثة، يمتلك الوجود مراتب من الشعور. عندما تتعرض المادة (التربة) لأعلى مستويات الطاقة الروحية والتضحية البشرية، يتأثر بناؤها الوجودي.

تأثير المراقب (فيزياء الكم): يظهر في هذه نظرية أنَّ النية والوعي يؤثران في سلوك الجزيئات. القبة والتربة تعملان كـ «نقاط تركيز للطاقة المعنوية»، والدعاء هناك هو وضع للروح في حقل طاقة متسق يزيد من إمكانية حدوث الخوارق.

الأنتروبيا المعنوية: أبعد من مفهوم «البلاسيبو» (التأثير النفسي)، تمتلك التربة «أنتروبيا سلبية» تعيد النظام والتوازن للجسد والروح[2].

(١) انظر: ابن قولويه: كامل الزيارات، ص٢٧٣. بحار الأنوار: ج٩٨، ص٦٩.
(٢) تفسير الميزان: ج٤، ص١٨٦ (بحث الولاية التكوينية).

الدور التربوي والحضاري للشوق إلى كربلاء:

كيف يصوغ «عطش الزيارة» الهوية الجماعية حول محور الولاية؟

يعمل «عطش الزيارة» كقوة محركة اجتماعية تحول الجماهير المشتتة إلى «أمة» واحدة، وهذا ما يفسِّره الكلام السياسي الشيعي عبر محور «الولاية» بوصفها العمود الفقري للهوية:

الانتقال من «الأنا» إلى «نحن» في ميعاد الولاية: الزيارة تفصل الزائر عن دائرته العرقية والطبقية، فعندما يتحرك الملايين نحو هدف واحد (لقاء الولي)، يتشكل كائن حي واحد. هذا ما يسميه الإمام الصادق عليه السلام بـ «صلة رحم آل محمد»، وهي تشكيل أسرة عالمية كبرى[1].

الولاية كمركز ثقل للهوية: الهوية الجماعية تحتاج إلى قطب محرك، والولاية في الثقافة الإسلامية هي تلك النقطة التي توجه الحركات المبعثرة. الزوار لا يجتمعون حول «عقد اجتماعي» جاف، بل حول «محبة قدسية».

(١) كامل الزيارات: ص٢٩٣.

العصبية الولائية: بتعبير (ابن خلدون)، الانسجام هو أساس القوة. في المجتمع الإسلامي، نرى «العصبية الولائية» تتجسد في مسيرة الأربعين (أكثر من ٢٠ مليوناً)، حيث تتجلَّى قيم الخدمة، الفداء، وتحديد جبهة الحق ضد الباطل (التولِّي والتبرِّي).

استعادة الهوية: من منظور (ميرتشا إلياده)، الزيارة هي عودة إلى «الزمن الأول». الزائر في حضرة الولاية يستعيد هويته القدسية الأصيلة بعيداً عن ماديات الحياة.

الخلاصة النهائية: كربلاء منظومة حياة:

إنَّ كربلاء ليست مجرد واقعة تاريخية، بل هي «مدرسة تجسيد التوسل»:

الحرارة الحسينية: هي تغيير تكويني في قلوب المؤمنين، تجعلهم في حالة «اضطرار» دائم للاتصال بمنبع الفيض، وهي الحالة المثلى لاستجابة الدعاء.

الملحمة العينية: حوَّلت كربلاء «الوسيلة» من نص صامت إلى فعل استشهادي، حيث صار الإمام هو الطريق والمقصد معاً.

الأدوات المادية: التربة والقبة هما «موصلات» للطاقة الإلهية،

تماماً كما ردَّ قميص يوسف عليه السلام بصر يعقوب عليه السلام. المادة في محضر القداسة تغيِّر خواصها.

البُعد السيادي: في العلوم السياسية، تُعرف هذه الهوية بـ «القوة الناعمة»، فعطش الزيارة يحفظ تماسك الأمة رغم الضغوط، لأنَّ مركز هويتها (الإمام) حيٌّ في القلوب وحاضر في المشاهد[1].

اذن، فالتوسُّل بالحسين عليه السلام هو المسار الذي يصل بـ «الإنسان المضطر» إلى «الحياة الطيبة»، ويجري روح العدالة في عروق التاريخ.

خاتمة الفصل الأول
كربلاء.. مِعراجُ الوسيلةِ ومُنتهى الفناء

بناءً على ما تقدَّم في طيّاتِ هذهِ الدراسة، نخلصُ إلى أنَّ حقيقةَ التوسلِ ليست مجردَ طقسٍ دينيٍّ عابر، بل هي «فلسفةُ وجودٍ» و«استراتيجةُ كمالٍ»تتجلى في أبهى صوَرِها تحتَ قُبَّةِ سيدِ

(١) الشهيد مطهري: الإمامة والقيادة، ص١٦٥.

الشهداء عليه السلام. لقد أخرجت كربلاءُ مفهومَ «الوسيلة» من بطونِ الكتبِ المكتوبةِ بمدادِ العلماء، لتكتبَهُ بدمِ الشهداءِ ملحمةً عينيةً تخترقُ الزمانَ والمكان.

إنَّ «الحرارةَ الحسينية» التي لا تبرد، هي المحركُ التكوينيُّ الذي يربطُ فقرَ الإنسانِ بغنى الخالق، وهي التي حوَّلت «التربةَ» من مادةٍ صامتةٍ إلى رسالةٍ ناطقةٍ بالشفاء، والضريحَ من معدنٍ جامدٍ إلى بابٍ مشرعٍ على الملكوت. فالتوسلُ بالحسين عليه السلام هو الرحلةُ من «الأنا» الضيقةِ إلى «نحنُ» الأممية، حيثُ تذوبُ الفوارقُ وتتشكلُ «الهويةُ الولائية» التي لا تُقهر، لتكونَ نواةً لحضارةٍ قوامُها العدلُ ومنبعُها العشقُ الإلهي.

خلاصةُ القول: إنَّ التوسلَ بأهلِ البيت عليهم السلام في مدرسةِ كربلاء، هو تجديدٌ دائمٌ لعهدِ الفطرة، وصيانةٌ للروحِ من التآكلِ في عصرِ المادية. وسيظلُّ عطشُ الزيارةِ هو الوقودَ الذي يُذكي روحَ المقاومةِ في عروقِ الأمة، ويقودُ البشريةَ نحو «الحياةِ الطيبة»، مؤكداً أنَّ مَن تمسَّك بـ «حبلِ الله المتين» وصارَ الحسينُ وسيلتَهُ، فقد أمنَ من العثارِ واستمسكَ بالعروةِ الوثقى التي لا

انفصامَ لها.

«وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ... وَكَانَ الْحُسَيْنُ هُوَ الْوَسِيلَةُ الأَعْظَم»

الفصل الثاني:
التوسُّل كرمزٍ للوحدة وصناعة الأمة

أولاً: التوسُّل وتشكيل الرأسمال الاجتماعي العابر للحدود:

يعدُّ الأربعين الحسيني، كأضخم تجمع بشري سنوي، رمزاً لتجاوز الحدود الجغرافية واللغوية والعرقية تحت راية الولاية. لقد حولت هذه الحركة «صناعة الأمة» من مفهوم نظري إلى واقع ملموس، حيث تغلبت «الهوية الدينية» على «الهويات الوطنية والقومية»، مما خلق انسجاماً اجتماعياً مستداماً[1].

إنَّ التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام يمثل «قوة ناعمة» وشبكة دبلوماسية عامة في العالم الإسلامي، توفر الأرضية للتعاون

(١) علي رضا شجاعي زند: سوسيولوجيا الدين، ص٢١٥.

الاستراتيجي بين الشعوب على أساس القيم المشتركة.

ثانياً: نمادج العطاء والمقاومة في التوسُّل العملي:

١. **رمز «المواساة» والإيثار الاجتماعي**: في طريق الأربعين، يتشكل نموذج اقتصادي واجتماعي فريد يقوم على «العطاء» بدلاً من «التراكم». المواكب هي التجسيد العيني للتوسل العملي، حيث تعتبر الخدمة تقرباً لصاحب المناسبة. ويشير الشهيد الصدر إلى أنَّ الرابطة بالإمام تحيي روح الفداء وتجذر أولوية المصلحة العامة على المنافع الفردية[١].

٢. **رمز النظم الطوعي والإدارة الشعبية**: من أكثر الرموز إثارة للدهشة هو الإدارة الذاتية للجماهير دون تدخل مباشر من الحكومات. هذا يثبت أنَّ التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام يخلق «انضباطاً داخلياً» في ملايين البشر، مما يحقق الانتظام الاجتماعي دون الحاجة لقوى قهرية[٢].

(١) السيد محمد باقر الصدر: أهل البيت عليهم السلام: تنوع أدوار ووحدة هدف، ص١٨٢.
(٢) مسعود چلبي: سوسيولوجيا النظم، ص١٧٦.

الفصل الثالث: الأربعين
تجلي التوسُّل العملي وصناعة الحضارة

الأربعين ليس مجرد ذكرى عزاء في التقويم، بل هو فصل «بلوغ التوسل». فإذا كان التوسُّل في (خلوة السجَّادة) استغاثةً لسانية، فهو في مسيرة الأربعين يتحول إلى «حركة عينية وبناء حضاري». إنَّ الزائر في هذا الطريق، ومع كل خطوة، يربط فقره الذاتي بغنى الإمام اللامتناهي، ليثبت أنَّ التوسُّل ليس هروباً من المسؤولية، بل هو استمدادٌ لـ «تحسين الحركة» نحو الحق.

في هذا الفضاء، يخرج التوسُّل من الحيز الفردي ليصطبغ بالصبغة الاجتماعية، فحين تتَّحد ملايين الإرادات حول محور «الوسيلة الإلهية» (الإمـام)، تظهر البراعم الأولى للحضارة الإسلامية الحديثة. إنَّ الأربعين يثبت للعالم أنَّ السبيل الوحيد للتحرر من مآزق العصر هو العودة إلى أعتاب العترة الطاهرة الذين هم «سفن النجاة» و«مصابيح الهدى».

الأربعين باختصار: هو التوسُّل في قامة «أمة» تمتد من منبت

«المحبة» نحو «العدالة» و«الظهور».

منطلقات التوسُّل في مسيرة الأربعين:

١. **التوسُّل في (الحركة) من «التضرع» إلى «الصيرورة»**: إنَّ حقيقة التوسُّل هي مرافقة الإمام في درب الحق. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ يُرِيدُ زِيَارَةَ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام... كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةً وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَةً**». وهذا هو أثر التطهير في أرقى صوره[١].

٢. **الربط بين «عاشوراء» و«الظهور» عبر التوسل**: الأربعين هو حلقة الوصل بين الماضي (كربلاء) والمستقبل (الظهور). وشعار الزائر «**وَنُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ**» يعكس أنَّ أوج التوسُّل هو الوصول إلى مقام نصرة الإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف[٢].

٣. **دور التوسُّل في الصمود وسعة الصدر**: إنَّ التوسُّل هو الذي يحوِّل مشاق الطريق إلى حلاوة. وتؤكد الروايات أنَّ الزائر في حمى إلهي خاص وتحت عناية الملائكة، مما يرفع سعة روحه لتحمل الشدائد بلا نهاية[٣].

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات، ص١٦٧.

(٢) الشيخ الطوسي: تهذيب الأحكام، ج٦، ص١١٣.

(٣) العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ج٩٨، ص٩٥.

الفصل الرابع:
الأربعين كأعظم رمز للوحدة

تحليل آليات تذويب الهويات القومية وتحقيق الأمة الواحدة:

١. **نظرية «الفضاء المقدس» وتعليق الانتماءات الأرضية:** من منظور سوسيولوجيا الدين، يخلق الأربعين «فضاءً بينياً، تذوب فيه الهويات الحديثة كالمواطنة والعرق والطبقة». الزائر المهاجر نحو المركز (كربلاء) يتحلل من قيوده الناشيونالستية ليرتدي هوية «الزائر». وكما يرى (ميرتشا إلياده)، فإنَّ الإنسان في المراكز المقدسة يعود إلى «الزمن الأزلي» حيث يتساوى الجميع أمام الحقيقة المطلقة[1].

٢. **الانتقال من «الدولة - الأمة» إلى «الأمة العالمية»:** يتحدى الأربعين نموذج الحديث الذي يجعل الحدود فاصلاً بين البشر. هنا يتجسد مفهوم ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ عيانياً. ويستدل الشهيد الصدر بأنَّ ولاية أهل البيت عليهم السلام

(١) ميرتشا إلياده: المقدس وغير المقدس، ص١١٥.

هي المحور الوحيد القادر على تحويل شتات الشعوب إلى وحدة عضوية تخترق حدود الاستعمار المصطنعة[1].

٣. **الرأسمال الاجتماعي العابر للحدود ودبلوماسية القلوب**: في الأربعين، يصل «الاعتماد المتبادل» بين الشعوب إلى ذروته. هذا الحجم من الإيثار (المواساة) دون عقود دولية يمثل «قوة ناعمة» تقوم على المحبة. يقول الإمام الخميني قدس سره: «في المسيرات والتجمعات الدينية، يجب أن تذوب القوميات لتتجلى قدرة الإسلام الكبرى... هذه الاجتماعات مبعث يأس الأعداء من التفرقة»[2].

٤. **تفكيك البنية القومية في طقس الخدمة**: في النموذج القومي، الأولوية لـ «ابن الوطن»، أمَّا في الأربعين، فالأولوية لـ «الزائر». استضافة العراقي للإيراني أو الأفغاني أو الأسترالي والتركي وغيرهم بكل ما يملك هي «هدم عملي لجدران القومية». ويوضح مسعود چلبي كيف أنَّ الشعائر الجماعية تستهلك التمايزات الفردية لصالح «وجدان جمعي مشترك»[3].

(١) السيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص١٢٨.

(٢) الإمام الخميني: صحيفة الإمام، ج١٣، ص٣٢٧.

(٣) مسعود چلبي: سوسيولوجيا النظم، ص١٨٨.

الفصل الخامس:
الأربعين الحسيني في الفكر الحضاري

إنَّ الأربعين في أفق «الفكر الحضاري» ليس مجرد طقس ديني أو سوادٍ وتفجع تاريخي، بل هو النموذج الاستباقي لـ «الحضارة الإسلامية الحديثة». إنَّ هذه الظاهرة تنفي المعادلات المادية للحضارة الغربية، وتقدم بدلاً منها نموذجاً حيوياً للحياة الاجتماعية يقوم على «الإيثار»، «المعنوية»، و«الارتباط القلبي بولي الله».

مؤشرات صناعة الحضارة في الأربعين:

أ- **كسر الهياكل المادية:** بينما تقوم الحضارات الحديثة على «النفعية» و«الفائدة الشخصية»، يدور الأربعين حول مدار «الأخوة» و«الخدمة». في هذه الجغرافيا، تتنازل الملكية الخاصة لصالح المشاركة الجماعية من أجل هدف أسمى.

ب- **تشكيل الأمة الواحدة:** يحول الأربعين «الجغرافيا السياسية»

إلى «جغرافيا آيديولوجية»، محطماً حدود العرق واللغة، وهذه هي وحدة الكلمة التي تمثل الركيزة لأي حضارة مقتدرة.

ج- **العقلانية الحمراء**: الأربعين مزيج من العقل والحماسة، وهي عقلانية ترى بقاء المجتمعات في الاستقامة والمقاومة الحضارية والبصيرة، لا في المهادنة مع الظلم.

إنَّ الأربعين هو «مناورة استعداد» لعصر الظهور، وتمرين على مجتمع تخدم فيه الرفاهية الماديةُ السموَّ المعنوي.

الرابط العاطفي والتمهيد للنظام العالمي الجديد:

١. **الرابط العاطفي بالولي، جوهر البناء الحضاري**: تُبنى الحضارات عادةً على المصالح المشتركة، أمَّا الحضارة الإسلامية الحديثة فتقوم على «الحب» و«الولاية». في الأربعين، لا يتحرك الزائر بدافع الإجبار، بل بجذب قلبي نحو مركز العالم (الإمام).

الدور الحضاري: هذه العاطفة تذيب التناقضات العرقية واللغوية لتخلق «الأمة الواحدة»، وهي الشرط اللازم لبناء أي حضارة[1].

٢. **الأربعين كنموذج لـ «الحياة المؤمنة»**: في الحضارة الحديثة،

(١) مقتبس من خطابات الإمام الخامنئي في لقاء أصحاب المواكب العراقيين، ٢٠١٩.

تتحول العلاقات الإنسانية من النماذج الرأسمالية (النفعية) إلى النماذج الإيثارية. الرابط العاطفي بالإمام الحسين عليه السلام يجعل الزائر والخادم كلاهما في خدمة الآخر بلا منٍّ ولا أذى[1].

٣. **تقابل العقلانية الأداتية الغربية**: تستند الحضارة الغربية إلى العقلانية المادية، أمَّا الأربعين فيعتمد «العقلانية الحمراء» (المزيج بين العقل والعشق للولي)، وهي تقدم نموذجاً تكون فيه المعنوية هي المحرك للتقدم والحركة[2].

الخاتمة التركيبية:

إنَّ الأربعين هو «نقطة الانفجار المعرفي والعاطفي» تجاه ولي الله، وهو الحجر الأساس لنظام عالمي جديد. إنَّه يثبت للعالم أنَّ الإسلام يمتلك القدرة على إدارة الكون بناءً على المحبة والعدالة، محولاً التوسُّل من استغاثة فردية إلى زحف أممي يمهد الطريق لدولة العدل الإلهي.

الأربعينُ.. معراجُ الدموعِ وسيمفونيةُ التوسل:

في جغرافيا الحُبِّ، حيثُ تنتهي حدودُ الأرضِ وتبدأُ مَمالكُ

(١) علي رضا بناهيان: الخطوة الثانية والثقافة الحضارية، ص١١٢.

(٢) حميد بارسانيا: السُنَّة والأيدئولوجيا والثقافة، ص٤٥.

السماء، تمتدُّ جادَّةُ الأربعينَ كأنَّها صراطٌ مُستقيمٌ مِن العشق، شَقَّهُ الحسينُ عليه السلام بدمِهِ ليعبُرَ منهُ التائهونَ إلى ضِفافِ النور. هنا، في هذا الطريق، يخلعُ الزمانُ ساعتَهُ، ويترك المكانُ حُدوده، ليقفَ الإنسانُ أمامَ حقيقةٍ واحدة: «أنَّ التوسلَ ليسَ كلمةً تُقال، بل هو خُطوةٌ تُؤخَذ».

الأربعينُ هو «التوسلُ بالأقدام»، حيثُ يكتُبُ الزائرُ استغاثتَهُ على رمالِ الطريقِ بِعَرَقِ جَبينه، ويُرسلُ أشواقَهُ معَ لَهيبِ أنفاسِه. في كلِّ خُطوةٍ يخطوها المُحبُّ، يهمسُ للكونِ: «يا حسينُ.. جئتُك بفقري لِتُغنيَني بِنظرة، وبِشَتاتي لِتَجمعَني في مَدارِك». إنَّهُ المَشهدُ الذي يتحولُ فيهِ «التوسلُ» مِن نجوًى فرديةٍ في زاويةِ مَسجد، إلى زحفٍ مِليونيٍّ يهزُّ أركانَ الماديةِ الجافَّة؛ ليُثبتَ للعالمِ أنَّ قُوةَ الرُّوحِ أعتى مِن جَبروتِ السلاح، وأنَّ دمعةً سَكبَها زائرٌ مُتوسلٌ هي مِفتاحٌ لِأبوابِ السماءِ المُغلقة.

أيُّ سِحرٍ هذا الذي جَعلَ «الوسيلةَ» (الحسين) مِغناطيساً يَجذبُ القلوبَ مِن أقاصي الأرض؟ وأيُّ إعجازٍ هذا الذي حوَّلَ الجُوعَ في طَريقِهِ إلى «مائدةِ كرَم»، والتعبَ إلى «لذةِ وِصال»؟ إنَّهُ

سِرُّ الفناءِ في المَحبوب. فالمُتوسلُ الأربعينيُّ لا يرى في الطَّريقِ بَرداً ولا حَرّاً، بل يرى «وَجهَ اللهِ» يَتجلى في قُبةٍ ذَهبيةٍ تَلوحُ في الأُفقِ كأنَّها شَمسٌ لا تغيب.

في الأربعين، يَتعلَّمُ العالَمُ أنَّ التوسلَ بالحسينِ عليه السلام هو المَدرسةُ التي تُخرِّجُ الأحرار، وهو المَنبعُ الذي يَسقي جُذورَ العدالةِ في عُروقِ التاريخ. إنَّها مَسيرةٌ تَبدأُ بِدمعةٍ وتَنتهي ببناءِ «أمةٍ»، أمةٍ لا تَعرفُ الخُضوعَ إلَّا لله، ولا تبتغي الوَسيلةَ إلَّا بمحمدٍ وآلِ محمد.

فيا سيدي يا أبا عبد الله.. لقد جَعلتَ مِن «توسُّلِنا» مَلحمةً، ومِن «أحزانِنا» حَضارة. فها نَحنُ نَمشي إليك، لا لِنصلَ إلى كربلاءَ فحسب، بل لِنصلَ من خِلالِك إلى رِحابِ الله، حيثُ لا حُزنَ يَبقى، ولا ظُلمَ يَستمر، وحيثُ يشرقُ نورُك ليملأَ الأرضَ قِسطاً وعَدلاً.

الخاتمة

التوسُّل ومنظومة البناء الحضاري

١. التوسُّل كضرورة وجودية (المستوى الأنطولوجي):

لم يكن هذا البحثُ مجردَ استقصاءٍ لغوي أو تجميعٍ للنصوص، بل انتهى بنا إلى حقيقةٍ كبرى، وهي: أنَّ «التوسل» هو القانونُ الوجوديُّ الرابطُ بينَ الخَلْقِ والحق. فالعقلُ الفلسفيُّ يُثبتُ أنَّ الفقرَ الذاتيَّ للمخلوقِ يقتضي وجودَ «واسطةِ فيضٍ» تَنزلُ عبرَها الأنوارُ الإلهية. إنَّ النتيجةَ الجوهريةَ هنا هي أنَّ التوسلَ ليسَ «طريقاً بديلاً» عن الله، بل هو «الطريقُ الإلهيُّ» الذي اختارَهُ الربُّ لتعريفِ عظمةِ مقامِ الإنسانِ الكامل. ومن هنا، يبرزُ التوسلُ كضرورةٍ أنطولوجيةٍ (وجودية) لكمالِ النفسِ البشرية، فلا عُروجَ بلا سُلَّم، ولا وصالَ بلا وسيلة.

٢. وحدة المرجعية الإسلامية وتفنيد الشذوذ الفكري:

لقد كشفَ التحليلُ المقارنُ في هذا الكتابِ أنَّ «التوسلَ» هو نقطةُ التقاءِ العقلِ الجمعيِّ للأمةِ الإسلامية بمختلفِ مذاهبِها. إنَّ الإجماعَ المستنبطَ من سيرةِ السلفِ الصالحِ وأقوالِ أئمةِ المذاهبِ الأربعةِ والعلماءِ الأعلام، يُثبتُ أنَّ الاعتراضَ على التوسلِ هو «شذوذٌ تاريخي» ظهرَ في فتراتٍ متأخرةٍ تحتَ تأثيرِ قراءاتٍ جامدةٍ للنصوص. لقد استطاعَ البحثُ أنْ يضعَ حداً فاصلاً بينَ «الشرك» (الذي يدعي استقلاليةَ السبب) وبينَ «التوسل» (الذي يرى كلَّ فاعليةٍ منتهيةً إلى الله)، وبذلك سقطتْ كلُّ التبريراتِ التكفيريةِ أمامَ سطوةِ الدليلِ والبرهان.

٣. السيكولوجيا التربوية: من العاطفة إلى البصيرة:

من النتائجِ الحيويةِ لهذا العمل، تبيانُ أثرِ التوسلِ في صياغةِ «الإنسانِ المقاوم». إنَّ التوسلَ بأهلِ البيت عليهم السلام، وبخاصةٍ بالحسينِ عليه السلام، ليسَ مجردَ تفريغٍ عاطفي، بل هو آليةٌ تربويةٌ لنقلِ قيمِ المعصومِ إلى روحِ المتوسِّل. إنَّ «عطشَ الزيارة» و«حرارةَ الدمعة» يَعقدانِ ارتباطاً كيميائياً بينَ روحِ الفردِ وبينَ قيمِ العدالةِ

والحرية. لقد أثبتتِ الدراسةُ أنَّ المجتمعاتِ المتوسلةَ هي الأكثرُ قدرةً على «الاستقامةِ» أمامَ ضغوطِ العولمةِ والمادية؛ لأنَّ لديهم رصيداً من «الأملِ الغيبي» لا يَنضب، ومرجعيةً أخلاقيةً حيةً لا تموت.

٤. الرؤية المستقبلية: نحو تمدنٍ قوامه الغيب:

إنَّ الثمرةَ النهائيةَ لهذا البحثِ هي الدعوةُ إلى إعادةِ النظرِ في مفهومِ «التقدم». إنَّ التمدنَ الحقيقيَّ الذي نادى بهِ الكتابُ هو التمدنُ الذي يربطُ التقدمَ الماديَّ بالسموِّ المعنويِّ عبرَ «بوابةِ التوسل». إنَّ «التربةَ» و«الضريحَ» و«القبةَ» و«المسيرةَ»، كلُّها أدواتٌ معرفيةٌ تُذكِّرُ الإنسانَ بأصلِهِ السماوي.

إنَّ الخاتمةَ التي نضعُها بينَ يدي القارئِ الكريم هي أنَّ «الحسينَ وسيلةُ الله» هي الصيغةُ الوحيدةُ القادرةُ على إنقاذِ إنسانِ العصرِ الحديث من العدمية. إنَّ توسلَنا اليومَ هو استراتيجيتُنا للغد؛ فلن يَصلَ العالمُ إلى برِّ الأمانِ ما لم يَركبْ «سفينةَ النجاة»، ولن تَتحققَ العدالةُ الشاملةُ إلَّا بالثباتِ على مَنهجِ مَن ضحَّى بكلِّ شيءٍ ليحيى فينا كلُّ شيء.

وأيضاً يمكن تلخيص عدَّة محاور مهمة في هذا الكتاب:

المحور الأول: التوسُّل كضرورةٍ وجوديةٍ وعقلية:

لم يكن هذا البحثُ مجردَ سردٍ تاريخي، بل انتهى بنا إلى أنَّ «التوسل» هو الركنُ الأساسُ في فهمِ العلاقةِ بينَ الخالقِ والمخلوق. فمن الناحيةِ العقلية، أثبتنا أنَّ التوسلَ ليسَ استعانةً بغيرِ الله، بل هو عينُ التوحيدِ عبرَ نظامِ «العلِّيةِ الطولية». إنَّ العقلَ السليمَ يُدركُ أنَّ الفقرَ الذاتيَّ للمخلوقِ يستدعي وجودَ «واسطةِ فيضٍ» تربطُ الأرضَ بالسماء. لذا، فإنَّ التوسلَ هو «القانونُ الوجودي» الذي أرادَهُ اللهُ ليكونَ معراجاً للأرواح، فالحقُّ سبحانه هو المبدئُ والمعيد، والأولياءُ هم الأبوابُ التي يُؤتى منها الله.

المحور الثاني: الميراثُ النبويُّ والقرآني:

لقد تتبعنا في فصولِ الكتابِ سيرةَ الأنبياءِ العظامعليهم السلام، فوجدنا أنَّ التوسلَ كانَ سُنَّةً جاريةً منذُ آدمعليه السلام الذي توسَّلَ بكلماتِ ربهِ وبأنوارِ أهلِ الكساء، وصولاً إلى خاتمِ النبيين محمدٍصلى الله عليه وآله. إنَّ القرآنَ الكريمَ حينَ قال: ﴿**وَابتَغوا اِلَيهِ الوَسيلَة**﴾،

لم يضعْ قاعدةً فقهيةً فحسب، بل رسمَ طريقاً سلوكياً. إنَّ تاريخَ الأديانِ يُثبتُ أنَّ البشريةَ لم تنفكَّ يوماً عن طلبِ الشفعاء، وهو ما يُؤكِّدُ أنَّ التوسلَ «فطرةٌ بشرية» صقَلَها الوحيُ وهذَّبَها الأنبياء، ليكونَ حصناً للمؤمنينَ من التيهِ والضلال.

المحور الثالث: التوسلُ بوصفِه مساحةَ إجماعٍ إسلامي:

من أهمِّ نتائجِ هذا العملِ هو تبيانُ أنَّ التوسلَ يُمثلُ «القاسمَ المشترك» والأصيلَ بينَ مذاهبِ الأمةِ الإسلامية. لقد استعرضنا فتاوى وسيرةَ أئمةِ المذاهبِ الأربعة (أهلِ السُنَّة والجماعة) جنباً إلى جنبٍ مع كلامِ مدرسةِ أهلِ البيت عليهم السلام، لنُثبتَ أنَّ الاعتراضَ على التوسلِ هو «شذوذٌ فكريٌّ» طارئٌ لا يمتُّ بصلةٍ إلى عمقِ التاريخِ الإسلامي. إنَّ إجماعَ الصحابةِ والتابعينَ والعلماءِ الأعلامِ عبرَ القرونِ يُشكلُ جداراً منيعاً أمامَ التياراتِ التكفيرية، ويُعيدُ للأمةِ هويتَها القائمةَ على المحبةِ والارتباطِ الروحيِّ بالرسولِ الأكرمِ وآلِهِ وأصحابِه.

المحور الرابع: كربلاءُ والأربعين.. من الاستغاثةِ إلى السيادة:

في ختامِ هذا البحث، تجلَّى لنا أنَّ «توسلَ الحسين عليه السلام» هو

المحركُ الأعظمُ للتاريخ. إنَّ الأربعينَ ليسَ مجردَ طقسٍ ديني، بل هو «المحرِّك» العمليُّ لبناءِ الأمة. في طريقِ الأربعين، يتحولُ التوسُّلُ من فعلٍ فرديٍّ إلى «قدرةٍ ناعمة» قادرةٍ على صياغةِ نظامٍ عالميٍّ جديد. الأربعينُ يُقدمُ أنموذجاً لـ «المدينةِ الفاضلة» القائمةِ على الإيثارِ والخدمة، بعيداً عن ماديةِ الغربِ وجفائه.

إنَّ المسيرةَ المليونيةَ هي صرخةُ التوسلِ الجماعيِّ بوليِّ اللهِ لنيلِ الحريةِ والعدالة.

المحور الخامس: الرؤيةُ النهائية.. التوسلُ بوصفِه خيارَ المستقبل:

إنَّ الثمرةَ النهائيةَ لهذا الكتابِ تضعُنا أمامَ مسؤوليةٍ كبرى، وهي أنَّ التوسلَ هو السبيلُ الوحيدُ لإنقاذِ إنسانِ العصرِ الحديث من العدميةِ والاغتراب.

إنَّ التوسلَ ليسَ غيبوبةً عن الواقع، بل هو «استراتيجيةُ بناءٍ»، تبدأُ بتزكيةِ النفسِ وتنتهي ببناءِ الحضارةِ الإسلاميةِ الحديثة. إنَّنا نختمُ بالقول: إنَّ «الحسينَ وسيلةُ الله» هي الحقيقةُ التي تَربطُ الغيبَ بالشهود، والترابَ بالملكوت. فالتوسلُ بـ «ذبيحِ الله» هو مفتاحُ الشفاءِ الروحيِّ والجسديِّ وترياقُ النجاةِ للأمم، فمن

تمسكَ بهذا الحبلِ المتين، فقد استمسكَ بالعروةِ الوثقى، وصارَ جزءاً من تلكَ الحضارةِ التي مَبدأُها العشقُ ومنتهاها العدلُ الإلهي.

قائمة المصادر والمراجع

١. محمد بن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، مج١١.
٢. د. روحي البعلبكي: المورد (قاموس عربي - إنكليزي)، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٩٠م.
٣. ملا محسن الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، مج١.
٤. السيد رضا الحسيني النسب: الشيعة تجيب، نشر مشعر، ط٢.
٥. السيد طالب الخرسان: الإسلام السعودي الممسوخ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٩هـ.ق.
٦. السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ، ج١، ج٤، ج٥، ج٨، ج٩، ج١٠، ج١٦.
٧. آرزو شكري: حقوق أهل البيت عليهم السلام.
٨. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، مج١٠.
٩. العلامة المجلسي: بحار الأنوار، مج٨٩ (فضل القرآن والتوسل). ومج٩٩، الباب ٩ (دعاء التوسل).
١٠. الشريف الرضي: نهج البلاغة، الحكمة ٣٦١ (نسخة صبحي صالح).
١١. ابن فهد الحلي: عدة الداعي ونجاح الساعي (قدرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله).
١٢. الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، مج٢ (باب الزيارة الجامعة).
١٣. الشيخ الطوسي: مصباح المتهجد (آداب الدعاء).
١٤. محمد بن يعقوب الكليني: أصول الكافي، مج٢.
١٥. الملا صدرا (صدر الدين الشيرازي): الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، مج٧.
١٦. جعفر السبحاني: ثقافة العقائد والمذاهب الإسلامية، مج٣ (قسم الشفاعة والتوسل).
١٧. العلامة الحلي: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، المقصد الرابع والخامس.
١٨. ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، النمط الثامن.
١٩. الملا صدرا: الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية.
٢٠. السيد جمال الدين (دين‌برور): موسوعة نهج البلاغة، مج١.
٢١. جعفر السبحاني: محاضرات في الإلهيات (تلخيص علي رباني گلپايگاني)، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
٢٢. أحمد ابن تيمية: التوسُّل والوسيلة (تحقيق محمد ناصر الدين الألباني)، المكتب الإسلامي.
٢٣. حسن بن يوسف الحلي: كشف المراد (تصحيح حسن زاده آملي)، مؤسسة النشر الإسلامي.

٢٤. عبد الله جوادي آملي: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (التوحيد في القرآن)، مج٢، مركز إسراء للنشر.
٢٥. أحمد ابن تيمية: قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة.
٢٦. محمد ري شهري: موسوعة العقائد الإسلامية، مج٦.
٢٧. جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مج٤.
٢٨. محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، مج٥.
٢٩. محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، مج٢.
٣٠. ابن حجر الهيثمي: الصواعق المحرقة، مج٢.
٣١. ابن حبان: الثقات، مج٢.
٣٢. أبو زكريا النووي: المجموع شرح المهذب، مج٨.
٣٣. ابن قدامة المقدسي: المغني، مج٣، دار الفكر.
٣٤. القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ، مج٢.
٣٥. عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: سنن الدارمي، مج١.
٣٦. نور الدين السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىﷺ، مج٤.
٣٧. شهاب الدين القسطلاني: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، مج٤.
٣٨. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مج١، و مج١٢.
٣٩. علاء الدين المرداوي: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، مج٢.
٤٠. ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار، مج٦.
٤١. محمد بن علي الشوكاني: تحفة الذاكرين.
٤٢. سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، مج٩، و مج٢٤.
٤٣. نور الدين الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مج٩.
٤٤. أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج، مج١.
٤٥. الإمام زين العابدينعليه السلام: الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧ (دعاء يوم عرفة).
٤٦. السيد محسن الأمين: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب.
٤٧. ابن كثير: البداية والنهاية، مج١.
٤٨. محمد نسيب الرفاعي: التوصل إلى حقيقة التوسُّل.
٤٩. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، مج٢.
٥٠. ابن أبي شيبة: المصنف، مج٧.
٥١. باقر غباري بناب: الإرشاد والعلاج النفسي بالمنهج الروحي، جامعة طهران، ١٣٨٨ش.

٥٢. مرتضى مطهري: العدل الإلهي، قسم الدعاء والتوسُّل، منشورات صدرا.
٥٣. مسعود وموسوي أصل آذربايجاني: علم نفس الدين، مركز «سمت» للنشر.
٥٤. محمدي نوري: التوسُّل والصحة النفسية: منهج تجريبي، مجلة علم النفس والدين.
٥٥. مسعود جانبزرگي: أصول العلاج النفسي والإرشاد بالمنهج الإلهي، معهد الحوزة والجامعة.
٥٦. خسرو باقري: نظرة جديدة في التربية الإسلامية، منشورات مدرسة.
٥٧. محمد تقي مصباح اليزدي: نحو بناء الذات (به سوى خودسازى)، معهد الإمام الخميني.
٥٨. ألبرت باندورا: نظرية التعلم الاجتماعي (ترجمة فرهاد ماهر).
٥٩. الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مادة «وسل».
٦٠. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، مج٣.
٦١. ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل (تفسير نمونه)، مج١٧.
٦٢. ابن شعبة الحراني: تحف العقول عن آل الرسول.
٦٣. عبد الله جوادي آملي: المجتمع في القرآن، مركز إسراء للنشر.
٦٤. مرتضى مطهري: الجذب والدفع في شخصية علي، منشورات صدرا.
٦٥. ابن صباغ المالكي: الفصول المهمة في معرفة الأئمة.
٦٦. محمد مهدي شمس الدين: ثورة الحسين في الوجدان الشعبي.
٦٧. الشيخ المفيد: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مج٢.
٦٨. الإمام روح الله الخميني: صحيفة النور (أو صحيفة الإمام).
٦٩. جوزيف ناي: القوة الناعمة (وسيلة النجاح في السياسة الدولية)، ترجمة محسن روحاني.
٧٠. محمد باقر الحكيم: الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين.
٧١. السيد محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية (المجموعة الكاملة).
٧٢. باول بيلار: المخابرات والسياسة الخارجية (تحليل جيوبوليتيك الأربعين).
٧٣. مسعود چلبي: سوسيولوجيا النظام، منشورات «ني».
٧٤. ابن قولويه: كامل الزيارات.
٧٥. ميرتشا إلياده: المقدس والمدنس (ترجمة نصر الله زنگوئي).
٧٦. السيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة.
٧٧. علي رضا بناهيان: الخطوة الثانية للثورة والحضارة الإسلامية الحديثة.
٧٨. حميد پارسانيا: التراث، الأيديولوجيا، الثقافة.
٧٩. إسماعيل بن عمر (ابن كثير): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ، ج٣، ج٤، ج٦.

٨٠. محمد بن عمر الفخر الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ج١٢، ج٢١، ج٢٧.
٨١. الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ط١، دمشق، دار العلم، ١٤١٢هـ.
٨٢. محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ، ج٦، ج٢٣.

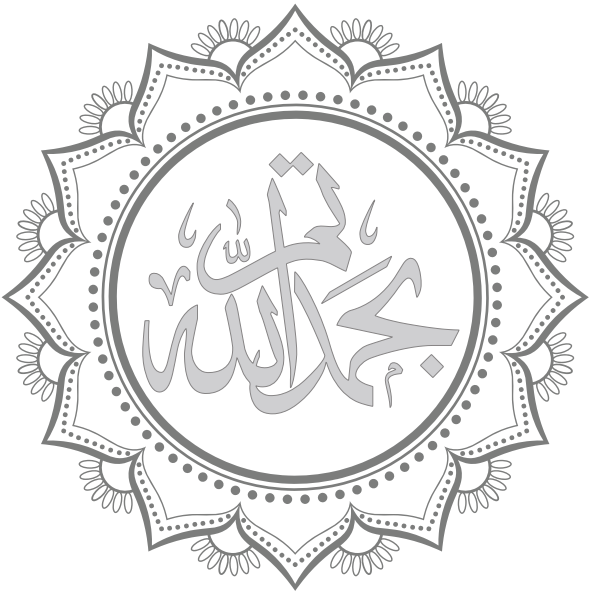

المُحتَويات

شكر وعرفان ٤
الإهداء ٦
المقدمة ٧
القسم الأول: العموميات والمفاهيم ٩
الفصل الأول: المفاهيم العامة ٩
الفصل الثاني: الدلالات والماهية ١٤
الفصل الثالث: ماهية التوسُّل ١٩
الفصل الرابع: منهجية التوسُّل ٢٤
القسم الثاني: الأسس النظرية والمقاربات العقلية ٢٨
القسم الثالث: الأسس النظرية للأدلة العقلية ٣٤
الفصل الأول: تلاقي العقل والشهود في مسير التقرب ٣٤
الفصل الثاني: التوسُّل من منظور العقل ٣٦
التوسُّل في ميزان القرآن الكريم ٤٣
الفصل الثالث: التوسُّل من منظور علم الكلام ٦٠
الفصل الرابع: أنواع التوسُّل من المنظور الكلامي ٦٥
القسم الرابع: الأدلة النقلية ومشروعية التوسُّل
في الإسلام (الكتاب والسنة) ٦٩
الفصل الأول: التوسُّل بأسماء الله وصفاته ٦٩
الفصل الثاني: المصادر الكلامية والحديثية عند الشيعة ٧٣
الفصل الثالث: مذاهب أهل السنة والجماعة ٧٦
الفصل الرابع: التوسُّل والسوابق التاريخية ٨٠
الفصل الخامس: مشروعية التوسُّل في ضوء السُنَّة

والسيرة وكلام أهل البيت عليهم السلام ٨٥
الفصل السادس: رؤية الأئمة الأربعة وكبار علماء أهل السنة ٨٩
الفصل السابع: جواز التوسُّل في كلام وسيرة أهل البيت عليهم السلام ٩٦
القسم الخامس: نقد الشبهات والحدود الاعتقادية ١٠٤
الفصل الأول: الحدُّ الفاصل بين التوسُّل والشرك ١٠٤
الفصل الثاني: خمس شبهات أساسية للوهابية حول
التوسُّل بأهل البيت عليهم السلام ١١٠
الفصل الثالث: التوسُّل في ميزان القرآن وسيرة الصحابة ١١٦
الفصل الرابع: تجلي التوسُّل في سلوك علماء الإسلام
(دراسة مقارنة لسيرة العلماء المتقدمين والمتأخرين) ١٢٣
القسم السادس: الأبعاد النفسية، التربوية والاجتماعية ١٤١
الفصل الأول: المقاربة بين المناهج (التوسُّل وعلم النفس) ١٤١
الفصل الثاني: التوسُّل في النظام التربوي الإسلامي ١٤٨
الفصل الثالث: آثار وبركات التوسُّل في المصادر الإسلامية ١٥٦
الفصل الرابع: الآثار الفردية والاجتماعية للتوسل بأهل البيت عليهم السلام ١٦٠
القسم السابع: التوسُّل، الوحدة وبناء الحضارة (رؤية حديثة) ١٦٨
الفصل الأول: كربلاء.. منبع التوسُّل وتجلِّي العطش المعنوي ١٦٨
التوسُّل بالحسين عليه السلام كمحرك تاريخي للعدالة ومناهضة الظلم ١٨٧
خاتمة الفصل الأول: كربلاء.. مِعراجُ الوسيلةِ ومُنتهى الفناء ١٩١
الفصل الثاني:التوسُّل كرمزٍ للوحدة وصناعة الأمة ١٩٣
الفصل الثالث: الأربعين تجلي التوسُّل العملي وصناعة الحضارة ١٩٥
الفصل الرابع: الأربعين كأعظم رمز للوحدة ١٩٧
الفصل الخامس: الأربعين الحسيني في الفكر الحضاري ١٩٩
الخاتمة: التوسُّل ومنظومة البناء الحضاري ٢٠٤
قائمة المصادر والمراجع ٢١١